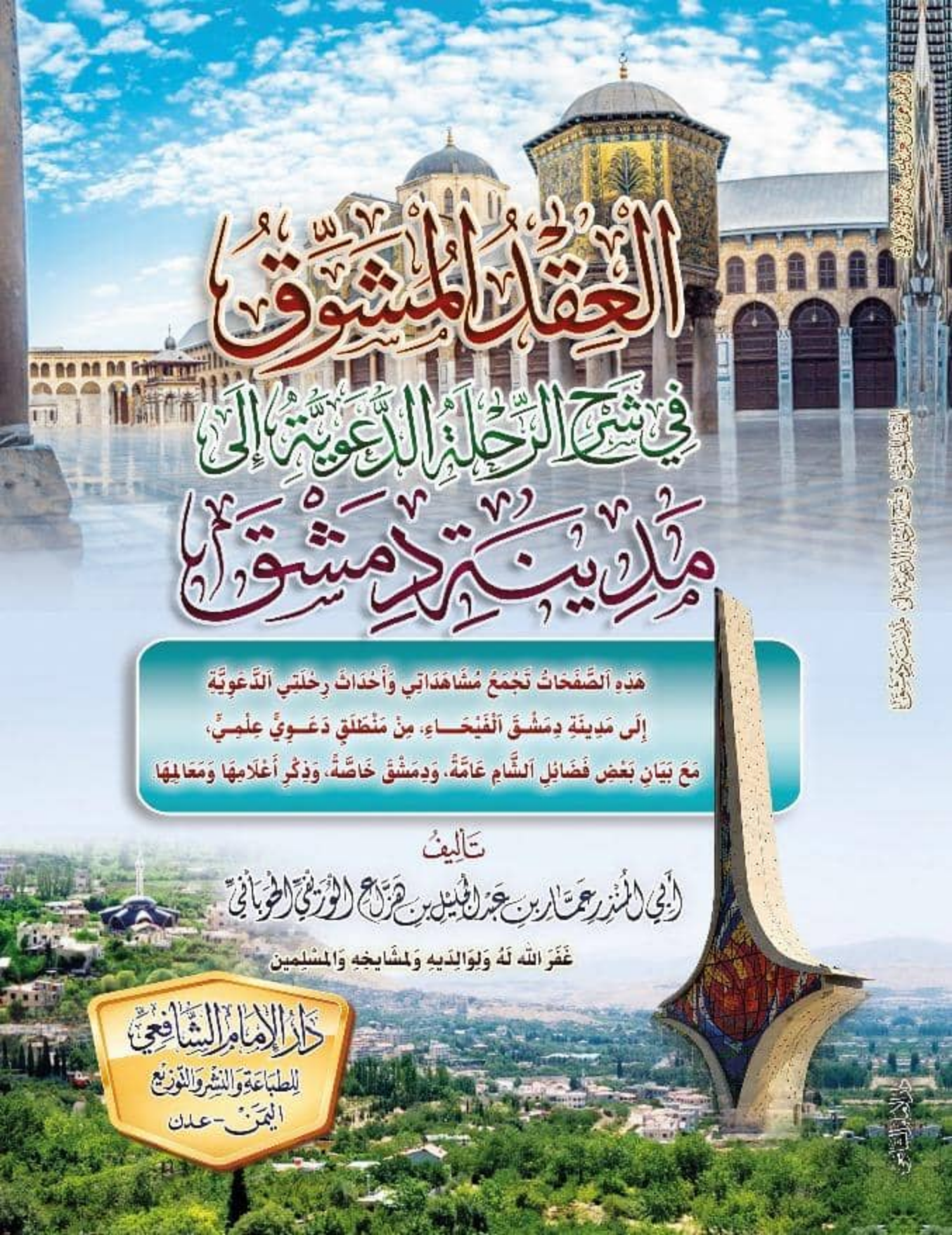

العقد المشوق

في شرح الرحلة الدعوية إلى مدينة دمشق

هذه الصفحات تجمع مشاهداتي وأحداث رحلتي الدعوية
إلى مدينة دمشق الفيحاء، من منطلق دعوي علمي،
مع بيان بعض فضائل الشام عامة، ودمشق خاصة، وذكر أعلامها ومعالمها

تأليف

أبي المنذر عمار بن عبد الجليل بن فرّاع الوريقي الحوباني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمسلمين

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

العِقْدُ المُشَوَّقُ

في

شَرحِ الرِّحْلَةِ الدَّعَوِيَّةِ إلى مَدِينَةِ دِمَشْقَ

الشريف للطباعة

مراجعة تنسيق صف إخراج

+966554298657 - +967779555171

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - **٢٠٢٥**م.

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي - جوار مسجد أنور - الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧ ٠٥٣٤١٥٩٨
حضرموت سيئون شحوح - مقابل مسجد ابراهيم . ومدرسة شحوح للبنين
+٩٦٧ ٧٨٣٢٤٦٥١٣
alshafibooks@gmail.com

العِقْدُ المُشَوَّقُ
في
شَرحِ الرِّحْلَةِ الدَّعَوِيَّةِ إلى مَدِينَةِ دِمَشْقَ

هَذِه الصَّفَحَاتُ تَجْمعُ مُشَاهَدَاتِي وأَحْدَاثَ رِحْلَتِي الدَّعَوِيَّةِ إلى مَدِينَةِ دِمَشْقَ الفَيْحَاءِ، مِنْ مَنْطَلَقٍ دَعَوِيٍّ عِلْمِيٍّ، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ فَضَائِلِ الشَّامِ عَامَّةً، ودِمَشْقَ خَاصَّةً، وذِكْرِ أَعْلَامِهَا ومَعَالِمِهَا

تأليف
أبي المُنْذِر عَمَّار بن عَبْد الجَلِيل الحُوبَاني
غَفَرَ اللهُ لَهُ ولِوَالِدَيْهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته اهتدى السالكون، وبفضله أشرق نور الموحّدين، أحمده سبحانه على ما أفاض عليَّ من مننٍ جزيلة، وأشكره على ما أنعم به من عطايا جليلة، رفع منار التوحيد، وأعلى كلمة الحق المجيد، وفتح لأهل سوريا أبواب النصر والتمكين، وأعاد لها بهاءها بعد طول عناء وأنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها النجاة يوم الدين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المصطفى الكريم، والهادي إلى الصراط المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، ومن تبعهم بإحسان على مرّ الأعصار، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن من أعظم ما يُستفتح به القولُ حمدُ الله على ما هدى ويسّر، إذ قد امتنّ علينا سبحانه بنعمة العلم والإيمان، وأكرمنا بالانتساب إلى ميراث الأنبياء، وحمّلنا أمانة البلاغ والدعوة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهذا أمر مباشر وتكليف للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومن تبعه من الدعاة أن يسلكوا سبيل الدعوة، فهي ليست نافلة اختيارية، بل واجب شرعي عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

فهذه الآية أصل في وجوب الدعوة، وبيان أن أعظم سبيل يسلكه المؤمن بعد التوحيد هو أن يكون داعيةً إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن.

فهذا من أجلِّ نعم الله على عبده أن يسلك به سبيل الدعوة إلى الله، ويجعله جنديًّا في صفوف المصلحين، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال لعلي بن أبي طالب يوم خيبر: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» البخاري (٤٢١٠)، مسلم (٢٤٠٦)، فأي منزلة أعظم، وأي شرف أرفع من أن يجعلك الله سببًا لهداية عبد من عباده، أو دلالة ضال، أو إنقاذ غافل؟

وقد امتن الله عليّ -والمنة له وحده- برحلة مباركة إلى **بلاد الشام**(١)، وبالأخص إلى **دمشق الفيحاء**(٢)، حاضرة التاريخ، ومهوى أفئدة العلماء

---

(١) إذا أُطلق اسم **بلاد الشام** في كتب التاريخ والحديث والتراجم، فالمراد به الإقليم الكبير المعروف قديمًا، ويشمل اليوم عدّة أقطار: **سوريا ولبنان والأردن وفلسطين**، فالشام اسم جامع لهذه البلاد كلّها، ولهذا قد يرد في الأحاديث النبوية ذكر الشام، ويراد به هذا الإقليم الواسع، لا خصوص سوريا المعاصرة، أمّا تخصيصه بدمشق أو فلسطين أو غيرهما فبحسب السياق.

(٢) الفيحاء: صفة من الفَيْح، وهو السَّعة والانبساط، ويُراد بها الإشارة إلى سَعة بساتين دمشق، وجمال طبيعتها، وهوائها، وكثرة أنهارها، وقد اشتهرت دمشق بهذا اللقب حتى صار =

والصالحين، وقد كانت رحلةً دعويةً امتدت قرابة ثلاثة أشهر، رأيت فيها من المشاهد والعبر ما يزيد اليقين، ويورث الحنين، ويبعث على استشعار النعمة التي نعيشها في ديار السنة في بلاد اليمن خاصة، حيث تحفنا حلق العلم، وتظلنا منابر الدعوة، وتشرق القلوب بأنوار الوحي.

وفي هذه الرحلة إلى أرض الشام المباركة، إلى دمشق الفيحاء، وجدت فيها من العِبر والمواقف ما يستحق أن يُسطَّر، لا ليُحكى كقصة عابرة، بل ليُتّخذ زادًا للدعاة، وعظةً للطلاب، وتذكرةً لأهل الغربة والتمكين، فما أشبه الليلة بالبارحة! هناك حيث وطئت أقدام الصحابة الكرام تلك البقاع المباركة، فأقاموا فيها معاقل العلم والجهاد، وشادوا منارات القرآن والحديث، فغدت دمشق وسائر بلاد الشام روضةً للعلماء، ومهوىً لطلاب السنة، ثم توالت العصور، فإذا بالبدع تغلب، والسنن تندثر بين طقوس الصوفية ومناهج الأشاعرة، حتى كادت معالم الهدى أن تخفى، وطمست رايات التوحيد، وزاد الطين بلّة ما جثم على صدر الأمة عقودًا طويلة من الزمن من تسلّط الشيعة النصيرية -لعنهم الله- الذين نشروا الظلم والجهل، وحالوا بين الناس وبين نور السنة، فإذا بالأرض التي طالما أنجبت الأئمة كابن تيمية وابن كثير وغيرهما من أعلام السلف، تصير اليوم في أشد الحاجة إلى من يذكّرها بهديهم، ويحيي فيها جذوة التوحيد، ويعيد للأمة سيرتها الأولى.

وقد جاء عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

= عَلَمًا عليها في كتب الأدب والتاريخ.

قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ» البخاري (٧٩)، مسلم (٢٢٨٢)، وهذا الوصف النبوي يصدق على ما رأيته بعيني: أقوامٌ عطاشى إلى العلم، قلوبهم سليمة وفطرهم نقية، ينتظرون الغيث، فإذا هطل عليهم نور الكتاب والسنة ارتووا وبكوا وتأثروا، حتى رأيت الشيوخ والصبيان يقولون بألسنتهم: لا تتركونا نحن أمانة في أعناقكم أيها الدعاة.

وإني لم أدون هذه الصفحات ترفًا ولا تسلية، بل أردتها **تذكرة لطلاب العلم**: أن يشكروا نعمة الله عليهم إذ يسّر لهم مجالس السنة، وأن يدركوا عظيم المسؤولية الملقاة على عواتقهم، وأن يعلموا أن وراء البحار والأقطار أقوامًا ينتظرونهم، يتطلعون إليهم كما يتطلع الظمآن إلى الماء البارد هذا، وإني قد أسميته هذا الكتاب «**العقد المشوِّق في شرح الرحلة الدعوية إلى مدينة دمشق**».

وإني إذ أُقدّم هذه الصفحات، فإني أقدّمها تذكرةً لإخواني الدعاة وطلّاب العلم، لعلها تكون لبنةً في بناء الدعوة، ونافذةً تُطلّ على واقعٍ حيّ عاشه الكاتب لا من وراء الأوراق فحسب، بل في المساجد والشوارع والبيوت والأسواق.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، مباركًا فيه، نافعًا للمسلمين، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

كما أسأله أن يجعلها نافعة للدعاة وطلاب العلم، وتذكرةً للمصلحين، وذخرًا لي

يوم ألقاه، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

ولا يفوتني في ختام هذه المقدمة أن أرفع أسمى عبارات الوفاء والتقدير والشكر إلى **شيخنا الوالد العلامة الناصح الأمين يحيى بن علي الحجوري** حفظه الله، الذي كان لي أبًا ناصحًا وموجِّهًا حكيمًا، يتابعني في خطواتي الدعوية، يرشدني إذا حِرْت، ويقوّيني بعون الله إذا ضعفت، حتى رأيتُ بركة مشورته في أدق المواقف، ومنها مسألة الترخيص التي أفادني فيها بتوجيهه الرشيد.

كذلك الشكر موصول إلى الشيخ الفاضل محمد باجمال الحضرمي حفظه الله، الذي لم يبخل عليَّ بمشورته، وكان يبادلني المتابعة والنصح، منذ بداية دعوتي هناك ويذكّرني دائمًا بما يعين على الثبات والإخلاص في الدعوة، فجزاه الله خيرًا على ما بذل من وقتٍ وجهدٍ وتوجيه.

فجزى الله هذين الشيخين المباركين خير الجزاء، وبارك في علمهما وعملهما، ونفع بهما الإسلام والمسلمين، وجعل ما قدّماه في ميزان حسناتهما.

وكتبه:/ **أبو المنذر عمار بن عبد الجليل بن هزاع بن غالب الوريفي الحوباني**

دار الحديث بشحوح -سيئون-حضرموت -القائم عليها فضيلة شيخنا العلامة يحيى بن علي الحجوري حفظه الله

٨ ربيع ثاني١٤٤٧ من الهجرة النبوية.

التدبيج المنمق على العقد المشوق

على سماء دمشق الكوكبَ الساري ... انثر على الشام مثل الدر أشعاري
وقل لجلّقَ مأوى الفاتحين لنا ... شوقٌ لسرد حكايات وأخبار
للفاتحين أولي الخيل التى انطلقت ... بكل أشوس يُفنى كل جبار
للصالحين لأهل العلم من رحلوا ... إليك عبر مفازات وأمصار
بنو أمية قصى لي حكايتهم ... فمنك أنشق منهم نفح آثار
قصى على حديث الانتصار على البـ ... ـطاغى النصيري نجل الركس بشار
إني كشعبك مسرور بعيدك يا ... جمانة الشام يا فيحاء أحرار
قالت حديثي سطور كالنجوم على.الـ ... ـعقد المشوق فاقرأ سفر عمار

حمود البعادني

الخميس / ٨ / جمادى الأول / ١٤٤٧هـ

دمشق بلباسها الأموي:

بعيد النصر بعد زوال حيه ... دمشق المجد هذا اليوم حيه
سلوها وهي في فرح ورقص ... أعاد إليك عهد بني أميه
أجاءكِ خالدٌ بالفتح يكوي ... جيوش الفرس كياً بعد كيّه
أدام الله عيدك يا دمشقٌ ... وجنبك الحُييّة والحُوية
فسلى للمجوس السيف كيلا ... يعودوا باسم زينب أو رُقيه
فآل البيت هم برءاء منهم ... فما شأن المجوس بهم أخيه

حمود البعادني

السبت / ٢٧/ جمادى الآخرة / ١٤٤٦هـ

نصيحة لطلاب العلم وخاصة في اليمن

إن من أعظم النعم التي امتن الله بها على أهل اليمن نعمة وجود العلم وأهله، فهذه البلاد المباركة لم تزل عامرة بحلق الذكر، وموائد القرآن، ومجالس الحديث، ومنارات التوحيد والعقيدة، ومجامع الفقه، جيلًا بعد جيل، حتى صارت مضرب المثل في بقاء نور العلم، ووضوح معالم الدعوة السلفية فيها، وليس هذا من باب الدعوى ولا من باب الاغترار، وإنما هو أمر مشاهد محسوس لكل من نظر وتأمل.

وقد صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذ قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ» البخاري (٤٣٨٨)، مسلم (٥٢).

فهذا النص النبوي الصريح شهادة خالدة من المعصوم، تُبين فضل أهل اليمن، وأن الله اختص الصالحين منهم بصفاء القلوب، ورقة الأفئدة، والحكمة الراسخة، وهذه من أعظم الصفات التي تؤهل لحمل ميراث النبوة وحفظ العلم ونشره.

ومن ينظر في واقع اليمن اليوم يرى مصداق هذا الخبر، فالمساجد عامرة بحلق القرآن، لا تكاد تجد مسجدًا من مساجد أهل السنة إلا وفيه حلقة تلاوة وتجويد. ثم ترى حلقات الحديث التي يتدارس فيها الطلاب الصحيحين والسنن، وحلقات الفقه التي يتعلم فيها الشباب أحكام الدين على منهج السلف الصالح، وحلقات العقيدة التي تُبصر الناس بمعرفة الله وتوحيده، وحلقات اللغة التي تحفظ لسان العرب وتعين على فهم القرآن والسنة.

ولم يقف الخير عند حلقات التعليم الشفوي فحسب، بل امتد أثره إلى ميدان التأليف والبحث، فخرجت من هذه البلاد مئات الرسائل والمؤلفات في شتى الفنون؛ من التفسير والحديث والعقيدة والفقه، إلى التربية والسلوك، والردود على أهل البدع، وهذه ثروة علمية عظيمة، تدل على رسوخ قدم طلاب العلم في البلاد اليمنية، وقوة عطائهم، وحرصهم على خدمة الدين.

ولئن كان العالم الإسلامي قد عرف كبار المصنفين في العصور السابقة، فإن اليمن اليوم –ولا سيما طلاب دار الحديث بدماج، مدرسة الإمام الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن بعده خليفته العلامة شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله– قد أخرجت جيلًا مميزًا في التأليف والبحث، فكم من رسالة جادة، وكم من تحقيق متقن، وكم من كتاب نافع خرج من بين أيدي هؤلاء، يشهد بعمق الفهم، ورسوخ المنهج، وصفاء المعتقد.

وهذه الموهبة الفريدة في ميدان التصنيف والبحث قلّ أن تراها في غيرهم من طلبة هذا الزمان، ولو أن هذه المؤلفات طُبعت بطبعات عالمية وخرجت من حدود الطباعة المحلية، لأدرك المسلمون في المشرق والمغرب أن اليمن اليوم منبع علم لا يقل عن أي منبع في تاريخ الأمة، لكن الله أراد أن يظل هذا الخير في تواضع وستر، يثمر في هدوء، حتى يأتي أوانه فيعرفه الناس.

فالواجب على طلاب العلم في اليمن أن يعرفوا قدر ما بين أيديهم، وأن يستشعروا هذه النعمة، وأن يبذلوا ما يستطيعون في نشرها، فإن الأمة في أمس الحاجة إليها، ووالله لو عرف الناس ما عند أهل اليمن من علم ومؤلفات، لشدّوا

إليهم الرحال كما كانوا يشدون في القرون الأولى إلى مكة والمدينة والكوفة والبصرة.(١)

هذه الصورة العجيبة قلّ أن توجد في كثير من بلدان المسلمين التي أُطفئت فيها مصابيح العلم، وغاب عنها العلماء الصادقون، وإن الواجب على طلاب اليمن أن يستشعروا هذه النعمة الجليلة، وأن لا يكونوا كمن قُدّمت له المائدة العامرة ثم أعرض عنها، بل الشكر الحقيقي يكون بالحرص والاجتهاد، والتشمير في الطلب، والبذل في التعلم والتعليم، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فمن لم

---

(١) ومن هنا أوجه نصيحة مهمة لطلاب العلم يا طلاب اليمن، لا تستهينوا بأنفسكم، ولا تزهدوا في مؤلفاتكم، ولا تتركوا بحوثكم حبيسة الأدراج، أو محدودة في مطابع محلية لا يعرفها إلا القليل، بل تحركوا، وابذلوا جهدكم في نشرها وإبرازها للأمة، فإن حاجتها إليها عظيمة، وظمأها للعلم لا يرويه إلا مثل نتاجكم.

إن الأمة تتخبط بين فتن وشبهات، وتعيش فراغًا مريرًا في باب العلم الصحيح، فكونوا أنتم السدّ المنيع، والمورد العذب، واثبتوا على المنهج الحق، واعلموا أن الله يرفع أقوامًا بالعلم، ويجعلهم مفاتيح للخير مغاليق للشر، ولا يزال أثر القلم أعظم برهان على صدق الدعوة ونقاء المعتقد، فاجعلوا أقلامكم سيوفًا، وكتبكم منائر، ومؤلفاتكم مشاعل هداية، واعلموا أن التاريخ لن يرحم الكسالى، ولن يعذر المقصرين، وإنما سيخلّد المجتهدين الصادقين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

يستغل هذه النعمة، فإنه قد عرّضها للزوال، ومن قصر في حقها فإنه لم يشكر الله حق شكره.

وقد جاء عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» أبو داود (٣٦٤١)، الترمذي (٢٦٨٢)، فانظروا يا طلاب العلم، أنتم حملة هذا الميراث، أنتم من يقوم مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في التعليم والبلاغ، فهل يليق بكم التفريط أو التواني؟ هذا مقام الأنبياء، ومن جلس فيه فليُقدر قدره.

وعلى طالب العلم أن لا يزهد في نفسه، فإن الله قد يرفعه بإخلاصه وهمته درجات، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وكم من طالب علم كان في بدايته مجهولًا، يجلس في أطراف الحلقات لا يعرفه أحد، ثم مع الصبر والإخلاص صار علمًا من أعلام الأمة، يُشار إليه بالبنان، وتقصده الناس من الأقطار. وهذه سنة الله في نشر العلم؛ لا يعرف أحد بداياتك، لكن الناس سيرون الخاتمة والمآلات.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن العلم هو السبيل إلى الجنة، فقال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فما أعظم هذا الوعد! طريق محفوف بالمشقة والتعب، لكنه طريق قصير إلى الجنة، لا يضيع فيه تعب طالب العلم، بل هو في عبادة ما دام في طلب العلم.

ومن أشد ما يبين خطورة التفريط في العلم ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» البخاري (١٠٠)، مسلم (٢٦٧٣)، فالعلماء هم صمام الأمان للأمة، فإذا ذهبوا ضاعت الأمة في ظلمات الجهل والفتنة.

وهنا أقول –تجربة شخصية–: إن رحلتي إلى الشام، إلى سوريا، جعلتني أزداد استشعارًا لهذه النعمة التي نحن فيها في اليمن، لقد رأيت هناك الحاجة الملحة إلى العلماء، وكيف تضيع الجماعات حين يغيب فيها الدليل الصحيح والصوت الشرعي الواضح، لمست بعيني كيف يتخبط الناس إذا غاب عنهم أهل العلم، وكيف تنتشر البدع والشبهات حين لا يجد الناس من يبين لهم الحق بالدليل، وهناك تذكرت مجالس اليمن، وحلقات العلم في المساجد، ورأيت عِظم النعمة التي نعيشها في اليمن.

إن ما نحن فيه في اليمن من كثرة العلماء، وكثرة الحلقات لا نظير له اليوم في كثير من البلدان الإسلامية، والمساجد مكتظة بالطلاب ليل نهار، ومناهج العلم متصلة بالسند عن السلف، وهذه نعمة تكتب بماء الذهب، بل لو عُرضت على شعوب أخرى لبذلوا أعمارهم لتحصيلها، ولكن الله خصكم بها، فاشكروها بالاجتهاد في طلب العلم، والحرص على الدعوة، وعدم الاستهانة بهذه الفرصة العظيمة.

فيا طلاب العلم في اليمن، لا تزهدوا في أنفسكم، ولا تقولوا: ما أنا إلا طالب صغير! فإن الأمة ستحتاج إليكم، وإن الزمان يتغير، والفتن تزداد، والباطل يعلو بصوت أهله، فلا بد من صوت الحق أن يبقى قويًا.

الخلاصة: إن نعمة العلم في اليمن نعمة عظيمة قلّ أن يوجد مثلها في هذا العصر، فوجب شكرها، والجد والاجتهاد في استثمارها، ورحلتي إلى سوريا جعلتني أشعر بعظيم الحاجة إلى العلماء، وأدركت أن ما عندنا في اليمن لا يُقدّر بثمن، فاستشعروا هذه النعمة، وكونوا على قدرها، فإن الزمان قادم بما فيه من الفتن، والأمة تنتظر منكم أن تكونوا ورثة الأنبياء بحق، فتسدون الثغور، وتحفظون الدين، وتضيئون للأمة طريقها في الظلمات.

همسة في آذان الدعاة إلى الله :

أيها الدعاة إلى الله، إن المسؤولية التي تحملونها ليست هينة ولا يسيرة، بل هي ميراث النبوة، وأمانة عظيمة حمّلكم الله إياها، فأنتم حملة مشاعل الهداية، وبكم تُعرف الحقائق، وبجهودكم تُدفع الشبهات، وبصوتكم يعلو الحق على الباطل.

فالأمة اليوم أحوج ما تكون إليكم، فالأهواء قد كثرت، والشبهات قد انتشرت، والفتن كقطع الليل المظلم، والناس يتخبطون، ينتظرون كلمة صادقة، وصوتًا ناصحًا، يردهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلا تتوانوا، ولا تركنوا إلى الكسل والراحة، فإنكم حُملتم مهمة عظيمة، وابتُعثتم لحمل راية جليلة، والله سائلكم عما استرعاكم، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ

﴿٢٤﴾ [الصافات: ٢٤].

ولتكن هممكم عالية، ونفوسكم عزيزة، وأوقاتكم مستثمرة في العلم والتعليم والدعوة، لا في اللهو والفراغ، ومن لا يحمل همّ الدعوة، فليعلم أنه قصّر في واجب الوقت، وخذل أمته في ساعة حاجتها. تذكروا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» رواه البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فالتبليغ واجب على قدر الطاقة، ولا عذر في التقاعس، واعلموا أن الله معكم ما دمتم صادقين، وأنكم على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يُؤتينّ الإسلام من قبلكم.

وقد زدتُ يقينًا بهذه الحقيقة حين خرجتُ إلى سوريا، فرأيت الناس هناك يتلهفون للكلمة الصادقة، ويجتمعون حول من يذكّرهم بالله، ويبحثون عن عالم أو داعية كما يبحث الظمآن عن الماء البارد، وشعرتُ يومها بعظم النعمة التي نحن فيها في اليمن، حيث الدعاة حاضرون، وحلقات العلم قائمة، وصوت الحق ظاهر، ثم أدركتُ أن الأمة في أماكن أخرى محرومة، وأن الحاجة إلى الدعاة عندهم أشدّ من حاجة الجائع إلى الطعام، فمن ذا الذي يترك الرقاد والدعة ويقوم بالدعوة إلى الله ونشر الدعوة هناك، وله من الله الأجر والثواب.

فيا أيها الدعاة، إن الأمة كلها تناديكم، والزمان يطرق أبوابكم، فلا تخذلوها، ولا تضيعوا أمانتها، فالتحرك التحرك، والجِد الجِد، والهمة الهمة، فإنها أمانة عظيمة على أعناقكم، وستذكر الأمة أثرها غدًا، ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الفصل الأول:

فضائل الشام وخصائصها

الشام... وما أدراك ما الشام؟ تلك الأرض المباركة التي باركها الله، وذكرها في كتابه، وجعلها مهوى أفئدة المؤمنين، وموطن الأنبياء والمرسلين، الشام ليست مجرد بقعة جغرافية على خارطة الدنيا، بل هي أرض قد خطّ التاريخ على ثراها أمجاده، وتعاقبت عليها رسالات السماء، وتفيّأت ظلالها أنوار الوحي والملائكة.

هي الأرض التي كانت ولا تزال قلبًا نابضًا في جسد الأمة، إذا ذكر العلم والفقه والحديث، حضر ذكر الشام، وإذا ذكرت البطولات والفتوحات، رفرفت رايات الشام، وإذا ذكرت المحن والفتن، تذكّر الناس ثبات أهل الشام وصبرهم.

الشام ليست كغيرها من البلاد، فهي مزيج من البركة الربانية، والمكانة الدينية، والأثر الحضاري، فهي مقر الأنبياء، ومهبط الوحي، ومكان العلماء، ومصنع الرجال، وعلى ثراها تلاقى الإيمان بالجهاد، وامتزج العلم بالصبر، وتوارث أهلها الحكمة جيلًا بعد جيل.

فما أعظمها من بقعة! وما أجلّها من منزلة! ولذا لم يكن عجبًا أن يكثر في نصوص الوحي ذكر فضائلها وخصائصها، لتبقى للأمة على مرّ العصور منارةً تُهتدى بها، وأرضًا يعتصم بها المؤمنون، ومأرزًا للدين إذا اضطربت الفتن فإليك بعضا من تلك الفضائل.

أولا: بركة الشام عموما في القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١].

بيّن الله تعالى أن المسجد الأقصى وما حوله أرض مباركة، وهذه البركة ليست دنيوية فقط، بل بركة دينية شرّفها الله بأن كانت مسرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ومن هناك ابتدأ معراجه، ومهبط الوحي على أنبياء كثيرين، فالشام أرض باركها الله بخصائص عظيمة: بإنزال الوحي فيها، وبكثرة أنبيائها، وببركة ثمراتها وخيراتها، فهي بركة في الدين والدنيا جميعًا.

وقال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء:٧١]، وهي أرض الشام، باركها الله بالخيرات وكثرة الأنبياء فيها.

البركة التي وصف الله بها الشام بركة عامة تشمل الدين والدنيا: فهي مقر الأنبياء والرسالات، ومجمع الخيرات والبركات، لا تزال أرض الشام شاهدة على أن بركة الوحي لا تنفك عنها، فهي أرض مباركة كما ذكر الله في القرآن، وهذا أعظم وسام يمكن أن تحمله بقعة من الأرض.

ثانيا: فضائل الشام عموما في السنة النبوية

الحديث الأول: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ

الْفِتَنُ بِالشَّامِ» رواه أحمد (٢١٧٣٣)، وصحّحه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والرهيب برقم: (٣٠٩٣)، والوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٢/ ١١٥).

يبين الحديث أن عمود الكتاب -رمز الدين- استقر في الشام، مما يدل على أن الإيمان يلجأ إليها عند اشتداد الفتن، فالشام حصن الإيمان، وملاذ المؤمنين بفضل الله، وموئل العقيدة عند اضطراب الدنيا، في هذا بشارة عظيمة لأهلها، وتثبيت لطلاب العلم أن الشام موطن النصرة والهداية.

الحديث الثاني: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **«رَأَيْتُ عَمُودًا مِنْ نُورٍ خَرَجَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي سَاطِعًا حَتَّى اسْتَقَرَّ بِالشَّامِ»** رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٤٨)، والطبراني في مسند الشاميين (١٥٦٦)، صحّحه الألباني في المشكاة (٦٢٨٠).

فالنور رمز للهداية والحق، واستقراره في الشام دليل أن هذه الأرض ستبقى منبعًا للضياء حتى في أشد الظلمات، فكم خرج من الشام من علماء ملأوا الدنيا علمًا، وكم كانت أرضًا لنشر العقيدة والحديث، إنها مشعل نور عبر التاريخ، وبشارة أنها ستبقى كذلك حتى آخر الزمان.

الحديث الثالث: عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا»**، قَالَ: قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا، قَالَ: قَالَ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا»**، قَالَ: قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا، قَالَ: قَالَ: **«هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»** رواه البخاري (١٠٣٧).

خصّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الشام واليمن بالدعاء بالبركة، إشارة إلى رسوخ الإيمان فيهما، بينما حذّر من الفتن في نجد(١)، وهذا ميزان دقيق من الوحي

---

(١) كثير من الناس يظن أن المراد بنجد في الحديث مدن السعودية الرياض وما جاورها، وهذا فهم غير صحيح، ولم يقل به أحد من العلماء، وإنما المراد به ما قاله ابن هبيرة -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٤/ ٥٢): قال الخطابي: نجد هي ناحية الشرق، فمن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وأصل النجد: ما ارتفع من الأرض، والغور: ما انخفض منها، وتهامة: كلها من الغور، والفتن تبدأ من المشرق، ومن نواحيها يخرج الدجال ويأجوج ومأجوج. اهـ

وقال الشيخ الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ في السلسلة الصحيحة (٥/ ٣٠٥)-: ويحملون الحديث عليه باعتباره من بلاد نجد المعروفة اليوم بهذا الاسم، وجهلوا أو تجاهلوا أنها ليست هي المقصودة بهذا الحديث، وإنما هي العراق كما دل عليه أكثر طرق الحديث، وبذلك قال العلماء قديمًا كالإمام الخطابي وابن حجر العسقلاني وغيرهم. وجهلوا أيضًا أن كون الرجل من بعض البلاد المذمومة لا يستلزم أنه هو مذموم أيضا إذا كان صالحا في نفسه، والعكس بالعكس، فكم في مكة والمدينة والشام من فاسق وفاجر، وفي العراق من عالم وصالح. اهـ

فالخلاصة: بعض الناس توهّم أن الحديث عن نجد المعروفة اليوم (وسط الجزيرة)، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا**»، فلما طلبوا له الدعاء للمشرق قال: «**هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ**»، وبالقياس الجغرافي: المشرق من المدينة هو العراق، بينما نجد (الرياض اليوم) تقع جنوب شرق، ولم تكن مشهورة آنذاك بالفتن الكبرى.

في تمييز المواطن، فبركة الشام ليست ادعاء، بل دعاء نبي ودليل نبوي، وهو باعث لطالب العلم أن يتشبث بما باركه الله ورسوله.

الحديث الرابع: عن سالم بن عبد الله عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ بِحَضْرَمَوْتَ فَتَسُوقُ النَّاسَ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَأْمُرُنَا؟، قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ**» رواه أحمد (٤٥٣٦)، الترمذي (٢٢١٧)، صحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٩٦).

عند اضطراب آخر الزمان وخروج النار العظيمة، جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الشام ملاذًا للمؤمنين، ففيه النجاة، وفيه اجتماع الأمة حين تتفرق، هذا يدل على أن خيرية الشام ثابتة حتى عند أهوال الساعة، فهي أرض الأمان حين تعم الفتن الأرض.

الحديث الخامس: عن معاوية بن قرة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» رواه أحمد (٢٠٣٦١)، والترمذي (٢١٩٢)، صحّحه الألباني في الصحيحة: (٤٠٣) والوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٢/ ١٣٨).

يربط هذا الحديث صلاح الأمة بصلاح أهل الشام، فهي قلب الأمة الحي، فإذا فسد القلب ضعف الجسد كله، ومع ذلك تبقى طائفة منصورة فيها، ثابتة على الحق رغم خذلان الناس، وهذا يبعث الأمل أن الشام ستظل حصنًا للسنة والحق حتى قيام الساعة.

الحديث السادس: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لِلشَّامِ**»، فَقُلْنَا: لِأَيٍّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا**» رواه أحمد (٢١٦٠٦)، والترمذي (٣٩٥٤)، والحاكم (٢٩٠٠)، صحّحه الألباني في الصحيحة (٥٠٣).

وكلمة طوبى بشارة عظيمة، وسببها أن ملائكة الرحمن مظللة الشام بأجنحتها، وهذه صورة بديعة تبعث الطمأنينة في القلوب: أرض تحفها الملائكة وتحرسها، فكيف لا يعظم حبها في قلوب المؤمنين؟

الحديث السابع: عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا هُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ**» رواه أحمد (١٩٢٩٠)، والطبراني في الكبير (٧٩٦٧) وصححه الأرناؤوط في المسند (٣٢/ ٤٦).

هذه العصابة من أهل السنة دليل على استمرار نصرة الدين في الشام، وأنها ستبقى منارة للثبات على الحق.

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**تُحْشَرُونَ هَا هُنَا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَحْوِ الشَّامِ مُشَاةً وَرُكْبَانًا، وَعَلَى وُجُوهِكُمْ تُعْرَضُونَ عَلَى اللهِ، وَعَلَى أَفْوَاهِكُمُ الْفِدَامُ، وَأَوَّلُ مَا يُعْرِبُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ**» رواه أحمد (٢٠٠٢٢).

وهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن **الشام** ستكون موطن الحشر، حيث يحشر الناس إليها رجالًا وركبانًا، بل وعلى وجوههم كما أخبر الصادق المصدوق

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، إشارة إلى شدّة الموقف وهوله، والإيماء بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نحو الشام تأكيد عملي على المقصود، مما يقطع أي لبس، أما قوله: «وَعَلَى أَفْوَاهِكُمُ الْفِدَامُ» فالفِدام هو ما يُجعل على فم القربة ليمنع سيلان الماء، وهنا يراد به أن الأفواه تُمنع من النطق، فلا يتكلم أحد إلا بجوارحه، وأول ما ينطق من ابن آدم فخذه، فيكون شاهدًا عليه بما عمل، وهذه الصورة المهيبة تضع المسلم أمام مشهد أخروي عظيم، يجعل القلوب ترتجف، ويزداد تعلقها بهذه الأرض المباركة التي قدّر الله أن تكون ساحة الحشر.

وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أن الشام آخر معاقل الإيمان، ومجمع صفوة الله من عباده، كما دلت عليه أحاديث أخرى، مما يزيد فضلها ووجوب محبتها والدعاء لأهلها.

الحديث الثامن: عن سلمة بن نفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أَسَمْتُ الْخَيْلَ، وَأَلْقَيْتُ السِّلَاحَ، وَوَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، قُلْتُ: لَا قِتَالَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، يُزِيغُ اللهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، وَيَرْزُقُهُمُ اللهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَلَا إِنَّ عُقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه أحمد (١٦٩٦٥)، وحسّنه الألباني في الصحيحة (١٩٦١).

وصف الشام بأنها عقر دار المؤمنين، أي: أصلهم ومأواهم الأخير، وهذا شرف عظيم، إذ جعلها الله مركز اجتماع المؤمنين حين تتفرق الأوطان، فهي قلعة

الإيمان، وعاصمة الدين، ومأوى الموحدين عبر العصور.

الحديث التاسع: عن ابن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَا ابْنَ حَوَالَةَ، إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ أَرْضَ الْمُقَدَّسَةِ، فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ**» رواه أبو داود (٢٥٣٥) وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (٧/ ٢٨٩).

وهذا الحديث يربط الشام بعلامات الساعة الكبرى، إذ بنزول الخلافة فيها تقترب الزلازل والفتن، فهي مركز الأحداث إلى آخر الدهر، وهذا يؤكد أن شأنها عظيم في الملاحم الكبرى، فهي أرض قدّر الله أن تكون محورًا للتاريخ حتى قيام الساعة.

الحديث العاشر: عن ابن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ**»، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ فَقَالَ: «**عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**» رواه أبو داود (٢٤٨٣)، صحّحه الألباني في صحيح أبي داود (٧/ ٢٤٦).

نص الحديث على أن الشام خيرة الله من أرضه، وأن الله يجتبي إليها خيرة عباده، وهذا وصف لم يُعطَ لأرض أخرى، وهو كافٍ وحده لإثبات أن الشام أرض الاصطفاء، وأنها ستظل محطّ اختيار الله لأوليائه وعباده الصالحين.

الفصل الثاني:

فضائل دمشق خصوصًا

إذا كانت **الشام** كلّها أرض بركة وموطن إيمان كما دلّت النصوص المتقدمة، فإن **دمشق**(١) هي قلبها النابض، وسرّ مجدها الخالد، فهي درّة الشام وتاجها، ومهوى أفئدة العلماء والعبّاد، وميدان حوادث التاريخ العظام، على أرضها مشى الصحابة الكرام، وبجوار نهر بردى(٢)، وتحت سمائها البيضاء قامت الملاحم

---

(١) قيل في سبب تسمية دمشق أقوال كثيرة، أشهرها:

أنها سُمّيت دِمَشق من التدميش وهو الإسراع، لأنهم أسرعوا في بنائها بعد الطوفان زمن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا مروي عن بعض أهل الأخبار.

وقيل: منسوبة إلى دِماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح، وهو أوّل من نزلها وعمرها، فغلب اسمه على البلد.

وقيل: أصلها سرياني من كلمة دار مشق، أي: الأرض المسقية، أو العامرة بالماء، إشارة إلى أنهارها الكثيرة وغوطتها الخصيبة.

ولهذا اختلف أهل اللغة والتاريخ، لكن جميع الأقوال تلتقي على الإشارة إلى قِدَمها، وعمارتها، وكثرة مائها، حتى صارت من أقدم مدن الأرض المأهولة.

(٢) نهر بردى: أشهر أنهار دمشق، وهو شريان حياتها منذ أقدم العصور، ينبع من جنوب الزبداني من على سلسلة الجبال السورية، وتحديدًا من عين الفيجة الواقعة في منطقة الزبداني =

الفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل.

فدمشق ليست مجرّد مدينة تاريخية، بل هي موطن الملاحم تلتقي فيها أطياف الماضي بملامح المستقبل، ويجتمع عندها جند الله من أطراف الأرض، ومن هذه الزاوية سأبين بعض النصوص الصحيحة في فضلها، نستلهم أنوارها، ونبثّ عبيرها، ونقف عند مشاهدها الموعودة التي لا تزيد المؤمن إلا يقينًا، ولا تزيد المتأمل إلا حبًّا لهذه البلدة الطيبة.

ولئن كانت النصوص الواردة في فضل **الشام** عامةً كثيرة متضافرة، فإن دمشق تدخل في هذا الفضل دخولًا أوليًّا، فهي قلب الشام النابض، غير أن الشريعة لم تكتفِ بذكر عموم الشام، بل جاءت نصوص خاصة بدمشق نفسها، ترفع من قدرها، وتبيّن منزلتها، وتجعلها مقصدًا للمؤمنين في الفتن الكبرى، وسأذكر هنا حديثين عظيمين ثابتين في خصوص فضل دمشق، ليكونا مثالًا لما ورد من النصوص في ذلك الباب.

فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ، إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ**» رواه أحمد (٢١٧٢٥)، وأبو داود (٤٢٩٨)، وصحّحه الألباني في

= شمال غرب دمشق، ثم يشق طريقه عبر الوادي ليعانق المدينة بطول يقارب ٧٠ كيلومترًا، ويقسم أحياءها ويغذي بساتينها، حتى ينتهي في غوطة دمشق، وقد عُدّ بردى سرَّ خضرة الشام وبهجتها، وقيل قديمًا: دمشق جنة الأرض، وبردى نهرها.

صحيح الجامع (١/ ٤٢٥) والإمام الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢/ ١١٥).

الغوطة: بضم الغين، وسكون الواو، وفتح الطاء، هي البساتين والحدائق الكثيرة الملتفّة التي تُحيط بالمدينة، ومنه قيل: غاط في الشيء إذا دخل فيه وانغمس. وغوطة دمشق: هي البقاع الخضراء الملتفة حولها، اشتهرت بخصبها وكثرة مياهها وأشجارها المثمرة.

الغوطة اليوم تنقسم إلى قسمين: **الغوطة الشرقية** و**الغوطة الغربية**.

من **الغوطة الشرقية**: دوما، وحرستا، وسقبا، وعربين، وكفر بطنا، وجسرين، وحمورية، وزملكا، وعين ترما، والمليحة، وجسرين، وبيت سحم، وغيرها من القرى والبلدات التي شكّلت حزامًا زراعيًا خصبًا حول دمشق.

ومن **الغوطة الغربية**: داريا، والمعظمية، وجديدة عرطوز، وقدسيا، وصحنايا، والأشرفية، وغيرها.

وقد كانت الغوطة تُسمى **سلة دمشق الغذائية** لما فيها من بساتين وغلال وخيرات، وهي التي أشار إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في فضله لكونها ستكون معسكر المسلمين يوم الملحمة.

فهذا الحديث يضع **دمشق** في قلب المشهد الأخروي؛ فهي ليست مجرّد حاضرة سياسية أو ثقافية، بل ميدان الملحمة الكبرى، ومعسكر الطائفة المنصورة عند اشتداد الصراع بين الحق والباطل، والغوطة التي تحيط بها بساتين خضراء جعلها الله حزامًا للمدينة، كأنها حامية طبيعية لأهلها، وفي هذا دلالة أن الله قد اختار

دمشق لتكون من خير المدائن، حيث يلوذ بها المؤمنون بإذن الله وتنعقد فيها راية الإسلام في مواجهة قوى الشر، وهذا من أعظم ما يبعث الأمل في قلوب المسلمين أن هذه الأرض المباركة لن تخلو من جند الله، مهما تكالب الطغاة والملحدون.

وعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكُمْ؟**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، ... إلى قوله: «**فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ ...**» رواه مسلم (٢٩٣٩).

والمنارة البيضاء التي ورد ذكرها في هذا الحديث هي من **مآذن الجامع الأموي الكبير بدمشق**، وهي تقع في الجهة **الشرقية** منه، وتُعرف اليوم عند أهل دمشق باسم **مئذنة عيسى**، بُنيت هذه المئذنة في القرن الثاني الهجري تقريبًا، وجُددت عدة مرات عبر العصور الأموية والزنكية والمملوكية والعثمانية، وما تزال قائمة شامخة حتى يومنا هذا، شاهدة على مكانة دمشق الروحية والتاريخية.

وهذا الحديث الشريف من أعظم ما يُبيِّن شرف **دمشق** وارتباطها بأحداث آخر الزمان؛ ففيه إخبارٌ صريحٌ عن نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند **المنارة البيضاء شرقي دمشق**، مما يجعل هذه المدينة المباركة مسرحًا لأعظم الوقائع الإيمانية وأجلها،

وهذا النزول ليس حدثًا عابرًا، بل هو تجلٍّ للوعد الرباني الذي بشّر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أمته، حيث يكون الفصل الحاسم مع الدجال وأتباعه، وينتهي على يدي المسيح الحق الذي يقيم العدل ويكسر الصليب ويقتل الخنزير.

إن تخصيص دمشق بهذه المنارة البيضاء شاهد على فضلها وعلو شأنها، إذ لم تُذكر مدينة أخرى بهذا التفضيل في شأن نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا جرم أن ذلك يزيد المؤمنين حبًّا لها وإقبالًا على معرفة أخبارها، ويُعطي دلالة على أن أرض الشام عامة ودمشق خاصة ستظلّ معقلًا للحق، وميدانًا يتجلّى فيه نصر الله لعباده المؤمنين، مهما طال ليل الباطل أو اشتدّت فتن الزمان.

نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دمشق آية من أعظم الآيات، وفضيلة باقية لهذه المدينة، فاختيار دمشق مكانًا للنزول دليل على مكانتها عند الله، وأنها حاضرة للإيمان إلى آخر العصور، والمنارة البيضاء ستبقى شاهدًا أن دمشق مدينة الخاتمة للأحداث الكبرى.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على مسلم (١٨/ ٦٧): أَمَّا «**الْمَنَارَةُ**» فَبِفَتْحِ الْمِيمِ، وَهَذِهِ الْمَنَارَةُ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، وَدِمَشْقَ بِكَسْرِ الدَّالِ، وَفَتْحِ الْمِيمِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَحَكَى صَاحِبُ الْمَطَالِعِ: كَسْرَ الْمِيمِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ فَضَائِلِ دِمَشْقَ. اهـ

الفصل الثالث:

زيارات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأرض الشام المباركة

إن لأرض الشام في قلب الإسلام مكانة سامية، ومهابة عريقة، فهي مهبط الأنبياء، ومسرى خاتمهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وبوابة الفتوحات الكبرى التي انطلقت منها أنوار التوحيد، وليس عجبًا أن تتكرر زيارات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لهذه الأرض المباركة، إذ اختصها الله ببركةٍ لا تنقطع، كما قال جل شأنه: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ زار الشام **أربع مرات**، كانت كل واحدة منها تحمل معنى خاصًا ورسالة ربانية عميقة:

الزيارة الأولى: وهو غلام مع عمه أبي طالب:

حين خرج في تجارة إلى بُصرى من أرض الشام، فرآه الراهب بحيرى، فعرف فيه علامات النبوة قبل بعثته، فكانت هذه الرحلة إيذانًا بأن لهذه الأرض صلةً موصولة بخاتم المرسلين.

الزيارة الثانية: في شبابه قبل النبوة:

خرج تاجرًا بأموال خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهناك رآه الراهب نسطور، وكان معه ميسرة غلام خديجة، فشهد صدقه وأمانته، وفي هذه الزيارة ظهرت معاني العفاف والأمانة التي هي أساس كل دعوة إلى الله.

الزيارة الثالثة: ليلة الإسراء والمعراج:

وهي أعظم الزيارات وأرفعها قدرًا، إذ أُسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في أرض فلسطين، وهي من أرض الشام المباركة، فصلى فيه بالأنبياء إمامًا، فيا لأرضٍ شرفها الله بزيارة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أربع مرات، وغرس فيها أنفاس التوحيد، وجعلها ملجأً لأهل العلم والدين في كل زمان، تذود عن حياض السنة وتدفع رايات البدعة.

الزيارة الرابعة: بعد النبوة في غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، في شهر رجب أو شعبان على الراجح، حين بلغه أن الروم -النصارى من أهل الشام- جمعوا جموعًا لغزو المسلمين، فجهّز جيشًا عظيمًا سُمّي جيش العسرة، وسار بهم حتى بلغ تبوك، وهي بلدة تقع في شمال الجزيرة العربية، على مشارف أرض الشام من جهة البلقاء - الأردن اليوم-، وقد دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حدود الشام الجغرافية التاريخية، لأن تبوك من تخوم الشام كما قال المؤرخون؛ بينها وبين المدينة اثنتا عشرة مرحلة، فأقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتبوك نحو عشرين يومًا ينتظر الروم، فلم يأتوا، فعقد معاهدات صلح وأمان مع أمراء تلك النواحي من نصارى الشام، منهم أُكيدر دومة الجندل، ويوحنّا بن رؤبة صاحب أيلة(١)، فدخل الناس في

---

(١) أيلة: هي آخر الحجاز، وأول الشام.

السلم مع المسلمين، وبذلك صار الإسلام ظاهرًا على أطراف الشام.

النتيجة: تُعدّ غزوة تبوك فاتحة الفتح الشامي، إذ كانت تمهيدًا لفتح بلاد الشام في عهد أبي بكر ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الفصل الرابع:

نبذة عن بعض كبار العلماء الذين عاشوا في دمشق

دمشق الفيحاء لم تكن فقط حاضرة للملوك والخلفاء، بل كانت مَعينًا لا ينضب للعلماء والمصلحين، ومأوى لكبار الدعاة والمجاهدين عبر القرون، فقد اجتمع فيها من الأعلام ما لم يجتمع في غيرها من البلاد، فأنجبت وبوَّأت العلماء مكانة رفيعة، وخلّدت أسماءً بقيت منارات للسنة في وجه البدعة، وإليك بعضهم:

الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٨ – ١٥٧ هـ)

هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام في عصره، وشيخها في الفقه والجهاد، استقر في دمشق بعد أن رحل إليها من بعلبك(١) كان له مذهب مستقل في الفقه، انتشر في الشام والأندلس مدة طويلة قبل أن يزول(٢)، كان الأوزاعي زاهدًا ورعًا، لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مواقف مشهودة في

---

(١) **بعلبك**: مدينة قديمة في سهل البقاع (لبنان اليوم)، سُمّيت بهذا الاسم نسبةً إلى بعل معبود الكنعانيين، وبك بمعنى الوادي، وكانت من مدن الشام الكبرى.

(٢) كان له مذهب مستقل في الفقه: انتشر بالشام والأندلس قرونًا، ثم اندثر، وقد ذكر العلماء أن السبب في اندثار بعض المذاهب الفقهية – كالأوزاعي والليث والثوري وابن جرير – هو تقصير تلامذتهم في تدوين علمهم ونشره، بخلاف مذاهب الأئمة الأربعة التي نشط طلابها في حفظها وتدوينها ونشرها.

مواجهة أهل الأهواء، وفي الذب عن عقيدة السلف.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٦١ – ٧٢٨ هـ)

هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني، وُلد في حران(١)، ثم صغيرًا إلى دمشق، بزغ نجمه في العلم منذ صغره، فتصدر للتدريس والإفتاء، وبلغت مصنفاته ما يقارب (٥٠٠) مؤلف بين كبير وصغير.

من أبرز مواقفه في دمشق أنه تصدى للصوفية الغلاة والأشاعرة، وأبطل شبهاتهم بالعلم والحجة، حتى بلغ من شدّة خصومته لهم أن دبروا له المكائد وألقوا به في السجون مرارًا، حتى مات في سجنه الأخير سنة (٧٢٨ هـ) بقلعة دمشق. ومع ذلك بقي صوته عاليًا، وأثره باقيًا، وانتفع الناس بعلومه قرونًا.

ومن كلماته العظيمة التي قالها وهو في السجن: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

تلميذ شيخ الإسلام الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٩١ – ٧٥١ هـ)

---

(١) **حرّان**: مدينة قديمة من مدن الجزيرة الفراتية، وكانت تُعدّ من بلاد الشام (سوريا قديمًا)، فتحها المسلمون في خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سنة ١٨هـ، وهي اليوم بلدة في جنوب تركيا قرب الحدود السورية، وُلد فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، وأصله عربي من بني نُمير، وهم قبيلة من قبائل قيس عيلان العدنانية نزلت الجزيرة الفراتية واستقروا بها.

وهو محمد بن أبي بكر الدمشقي، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وخليفته في الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والبدع.

من أشهر كتبه: مدارج السالكين، زاد المعاد، إغاثة اللهفان، إعلام الموقعين، وقد حارب التصوف، وردّ على الجهمية والباطنية، وسُجن مع ابن تيمية، كلماته في تزكية النفوس ودواء القلوب صارت مرجعًا خالدًا.

تلميذ شيخ الإسلام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠١ – ٧٧٤ هـ)

وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ولد في قرية مجدل قرب بصرى الشام(١)، ثم استقر في دمشق، تتلمذ على ابن تيمية وتأثر به، وكان من أبرز المفسرين والمحدثين والمؤرخين.

من أبرز مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، الذي يعد من أعظم التفاسير بالأثر، والبداية والنهاية في التاريخ، وقد وقف ابن كثير سدًّا منيعًا أمام تأويلات المتكلمين، وتحريفات المبتدعة، كان ملازمًا للمسجد الأموي، ينشر العلم ويؤلف ويدرس.

---

(١) قرية المجدل ما زالت موجودة اليوم باسمها مجدل شمس أو المجدل، وهي تابعة إداريًا لمحافظة درعا جنوب سوريا، في منطقة حوران.

تلميذ شيخ الإسلام الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٣ – ٧٤٨ هـ)

وهو شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(١)، وُلد في دمشق ونشأ فيها، اشتهر بإمامته في الحديث والنقد والتاريخ، يُلقب بـشيخ المحدثين في عصره، له مؤلفات عظيمة.

من أبرز كتبه: سير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال، وتذكرة الحفاظ، وقد كان الذهبي شديدًا على أهل البدع، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ومع ذلك كان منصفًا، واسع الاطلاع، ذا أسلوب بديع في البيان.

تلميذ شيخ الإسلام الإمام ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠٤ – ٧٤٤ هـ)

وهو يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي الدمشقي، من تلامذة ابن تيمية، عُرف بتمكنه في الحديث.

ومن أشهر كتبه: الصارم المنكي في الرد على السبكي، حيث دافع فيه عن شيخ الإسلام ورد على من اتهمه بالتجسيم، وكان شجاعًا في الذب عن العقيدة السلفية.

---

(١) لُقِّب بالذهبي لأحد سببين ذكرهما أهل التراجم:

القول الأشهر: أن جَدَّه أو أباه كان يعمل في تذهيب الذهب أو صناعة الحُلي، فنُسبت العائلة إلى هذه الصنعة، فقيل لهم: آل الذهبي.

قول آخر: أن اللقب لُصق بهم تشريفًا لما اشتهر به الإمام من العلم الغزير والنَّفَس العالي في التراجم، حتى قيل: علمه كالذهب في صفائه ونفاسته.

تلميذ شيخ الإسلام الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٣٦ – ٧٩٥ هـ)

وهو زين الدين عبد الرحمن بن أحمد، وُلد ببغداد ثم انتقل إلى دمشق واستقر فيها، كان عالمًا بالحديث والفقه، وله مؤلفات عظيمة منها: جامع العلوم والحكم، فتح الباري شرح صحيح البخاري (وصل فيه إلى كتاب الجنائز)، ولطائف المعارف، كان مثالًا للزهد والتواضع، ومحبوبًا بين أهل دمشق.

الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٩٩ – ٥٧١ هـ)

وهو علي بن الحسن بن هبة الله، صاحب تاريخ مدينة دمشق، أكبر موسوعة في تراجم الرجال والبلدان، بلغ عدد مجلداته في بعض الطبعات أكثر من (٨٠ مجلدًا).

كان حافظًا محدثًا بارعًا، جمع الأسانيد، واعتنى بذكر من دخل دمشق من الصحابة والتابعين والعلماء، وفضله باقٍ إلى اليوم، إذ صار كتابه مرجعًا لا غنى عنه في التاريخ والرجال.

الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣١ – ٦٧٦ هـ)

وهو يحيى بن شرف الدين النووي، وُلد في نَوى قرب دمشق(١)، ثم انتقل إلى دمشق فصار من كبار علمائها، عُرف بالزهد والعبادة، وانصرف للتدريس والتأليف حتى ملأ الدنيا علمًا.

من أبرز كتبه: رياض الصالحين، والأذكار، وشرح صحيح مسلم، والمجموع

---

(١) **نَوى**: بلدة صغيرة من قرى حوران في جنوب الشام (سوريا اليوم)، تقع قرب درعا.

شرح المهذب، وقد ناصر السنة، قال عنه بعض من ترجم له: ما علمت أحدًا أشد تمسكًا بالزهد والورع والعبادة منه.

الإمام ابن قدامة المقدسي (٥٤١ – ٦٢٠ هـ)

وهو عبد الله بن أحمد المقدسي، أحد أعلام المذهب الحنبلي، ولد بجماعيل(١) استقر بدمشق، من أعظم كتبه: المغني في الفقه المقارن، الذي عُدّ من أكبر المراجع الفقهية على الإطلاق، كان إمامًا زاهدًا ورعًا، شارك في الجهاد مع صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، فجمع بين العلم والعمل.

السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٤٩ – ٩١١ هـ)

وهو جلال الدين السيوطي، وإن كان أصله من مصر، إلا أنه زار دمشق وقرأ بها على مشايخها، واستفاد من مكتباتها العريقة، وكان موسوعة في علوم التفسير والحديث واللغة.

من أبرز كتبه: الدر المنثور، والجامع الصغير، وتدريب الراوي.

الإمام محمد ناصر الدين الألباني (١٣٣٣ – ١٤٢٠هـ):

وهو من كبار علماء الحديث في العصر الحديث، ومن العلماء المجددين، عُرف بإمامته في فن الجرح والتعديل، وبخدمته العظيمة لسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تحقيقًا وتخريجًا وتأليفًا، وُلد في مدينة أشقودرة بألبانيا، ثم انتقلت أسرته إلى دمشق

---

(١) **جماعيل**: قرية من قرى نابلس بفلسطين، نُسب إليها جماعة من العلماء.

في صغره، فنشأ فيها وترعرع في أحيائها، تلقى العلم الشرعي بنفسه وبالقراءة على العلماء، وأقبل على المطالعة والمثابرة.

ففي دمشق بدأ رحلته العلمية الحقيقية، فكان يلازم المكتبة الظاهرية بالساعات الطوال، حتى صار من أعلم الناس بمخطوطاتها، وخرج منها مؤلفات عظيمة بلغت المئات بين كتاب ورسالة، من أبرز كتبه: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، وصفة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

كان الألباني من أبرز رموز الدعوة السلفية في الشام، دعا إلى تجريد التوحيد ونبذ البدع، وواجه تيارات التصوف والأشاعرة والإخوان المسلمين بالحجة والبيان، عُرف بالزهد، وقوة الحجة، وصراحته في نصرة السنة.

وبقي في دمشق سنين طويلة يدرّس ويؤلف، حتى صار مرجعًا لأهلها في الحديث والدعوة، وانتشر طلابه في بلاد الشام والعالم الإسلامي.

غير أن نشاطه الدعوي إلى المنهج السلفي جلب له معارضة شديدة من بعض الخصوم الأشاعرة الصوفية وغيرهم من أهل البدع، بل وتعرض لمضايقات من السلطات، فمُنع من التدريس والخطابة، وسُجن مرتين: إحداهما في قلعة دمشق قبل حرب ١٩٦٧م، وهي نفس القلعة التي سجن فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، والأخرى في سجن الحسكة ثمانية أشهر، ومع هذا الصبر والمحنة، بقي ثابتًا على دعوته، حتى قيّض الله له أن يهاجر من دمشق إلى عمّان في الأردن، حيث استقر به المقام، وواصَل نشاطه العلمي، فخلّف تراثًا مباركًا نفع الله به أهل الإسلام.

توفي سنة ١٤٢٠هـ ودفن فيها رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة.

الفصل الخامس:

أثر دمشق في نشر السنة ومحاربة البدعة

لقد كانت دمشق عبر القرون قلعة حصينة للسنة، وموئلًا لعلمائها، ومنطلقًا لجهادهم في مواجهة أهل البدع والانحرافات، ومَن يقرأ تاريخها يرى بوضوح كيف تعاقبت على منابرها أصوات المصلحين، وكيف بقي أثرها في الأمة خالدًا.

دور العلماء في ترسيخ السنة:

في دمشق جلس شيخ الإسلام ابن تيمية يعلّم الناس التوحيد، ويكشف شبهات الصوفية والأشاعرة والرافضة، فارتجت مجالس العلم بكلماته، حتى سُجن غير مرة، ومع ذلك بقيت كلماته تضيء الدروب، وأصبح رمزًا للسنة والجهاد، وتلميذه ابن القيم نشر علوم العقيدة والتزكية، فكان كتابه إغاثة اللهفان صرخة في وجه البدع المنتشرة.

كما برز ابن كثير في تفسيره، متمسكًا بالمنهج السلفي في العقيدة والحديث، ووقف ابن قدامة موقفًا عظيمًا حين جمع بين الفقه والجهاد مع صلاح الدين، مثبتًا أن السنة لا تقوم إلا بعلم وعمل.

موقف دمشق من الصوفية والبدع:

لم تسلم دمشق من موجات التصوف والطرقية التي حاولت طمس نور السنة، لكن العوام في الغالب كانوا ينفرون من تلك الطقوس إذا قورنت بالقرآن

والحديث، ولذا فإن كلمة قال الله، قال الرسول كانت تملك في قلوبهم وقعًا، ولهذا كان الصوفية يحذرون من الدعاة السلفيين، ويخشون انتشار دعوتهم، لأنهم يدركون أن بضاعة أهل الحق نافذة في القلوب.

وقد جرت على مر العصور مواقف تُظهر ذلك؛ فكم من مرة حاولت الصوفية منع الخطب والدروس، لكن العامة تعجبوا واستنكروا، وكانوا يتهامسون: لماذا يُمنع من يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله؟ أليس هؤلاء هم أهل الحق؟، بل جاء بعضهم إلى الدعاة سرًا يقولون: اصبروا، أنتم على الحق، وهؤلاء قد قاربت أيامهم على الزوال.

المنابر والكتب:

لم يكن المسجد الأموي وحده، بل امتلأت دمشق بالمدارس العلمية والزوايا التي أنشأها أهل السنة، كـالمدرسة العمرية، والظاهرية، والنورية، وكانت مكتباتها عامرة بالمخطوطات، إلا أن الصوفية في عصور الضعف منعوا كتب ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، كما حصل في زمن النصيرية (حكم بشار ووالده) غير أن الكتب بقيت تتسلل، وظل عطش الناس قائمًا حتى إذا وجدوا نسخة من مدارج السالكين أو زاد المعاد تناقلوها سرًا كأنها جواهر.

ثمرات بقاء السنة:

إن وجود هذا الإرث العلمي جعل دمشق مرجعًا لأهل السنة في كل مكان، فمهما تعاظمت البدع، تبقى جذوة السنة حاضرة، تطل برأسها في تفسير ابن كثير، أو في فتوى لابن تيمية، أو في حكمة لابن رجب، فهي المدينة التي لا تنطفئ فيها

مصابيح الهداية بفضل الله وإن تكاثفت عليها غيوم البدعة.

والخلاصة: إن دمشق في حقيقتها ليست مجرد جغرافيا، بل هي رمز لصراع الحق مع الباطل، والسنة مع البدعة، وفي كل عصر يُبعث فيها من يجدد الدين، تجسيدا لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**» أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

منارات العلم والمدارس التاريخية في دمشق

لم تكن دمشق عبر العصور دار ملك فقط، ولا معقل جهاد فحسب، بل كانت – قبل ذلك وبعده– دار علم ومعاهد تربية، ومنارات هدى يهوي إليها طلاب الحديث والفقه والتفسير من كل حدب وصوب، ولقد زخرت دمشق بالمدارس العلمية التي أنشأها الملوك والأمراء حبًّا في نشر الدين، ورغبةً في إعلاء شأن الشريعة، حتى قيل بحق: من أراد أن يرى أثرًا من آثار الحضارة الإسلامية العظمى، فليتجول في مدارس دمشق، من تلك المدارس ما يلي.

أولا: المدرسة النورية (١)

---

(١) المدرسة النورية بدمشق تقع في سوق الخياطين بالمدينة القديمة، وهي ضمن سور دمشق حسب بعض الروايات، هي جنوب غرب الجامع الأموي داخل سور المدينة في السوق المذكور

أسسها السلطان العادل **نور الدين محمود زنكي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٥٦٩هـ)، ذلك المجاهد الرباني الذي جمع بين السيف والعلم.

أنشأ هذه المدرسة سنة ٥٥٩هـ، وجعلها دارًا للحديث النبوي، ومن أبرز من درّس فيها الإمام الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق، حتى لُقبت المدرسة بـ دار السنة، وكان يُتلى فيها صحيح البخاري وصحيح مسلم، وتُعقد فيها الحِلَق لشرح كتب التفسير والفقه.

إذا دخلت اليوم إلى أطلال المدرسة النورية أو وقفت على بقية جدرانها، يخيل إليك أن أنفاس ابن عساكر ما زالت تتردد في أرجائها، وأن صوت المحدِّثين وهم يروون الأسانيد لا يزال يملأ أركانها، وكأنها ما زالت تنبض بالحياة بعد مضي قرون.

ثانيًا: المدرسة العمرية (١)

وتُنسب إلى **الملك العادل عمر بن محمد بن قدامة المقدسي**(ت ٦٠٧هـ)، وكانت من المدارس الكبرى التي عنيت بالفقه والحديث، وتخرّج فيها أعداد من القضاة والمفتين الذين تولوا المناصب الكبرى في الدولة الأيوبية، وكانت تُعدّ امتدادًا للمدرسة النورية، حتى صار يُقال: **النورية أمّ المدارس، والعمرية بنتها.**

ثالثًا: المدرسة الظاهرية (١)

---

(١) تقع في حي الصالحية على سفح جبل قاسيون، خارج أسوار مدينة دمشق القديمة.

أنشأها السلطان **الظاهر بيبرس البندقداري** (ت ٦٧٦هـ)، ذلك البطل الذي هزم الله به التتار ورد كيد الصليبيين، أراد أن يترك أثرًا علميًّا خالدًا، فبنى هذه المدرسة سنة ٦٧٦هـ، وجعلها دارًا للقرآن والفقه، وفيها دُفن الإمام الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، كما ارتبطت المدرسة بمكتبتها الشهيرة التي بقيت إلى يومنا هذا، وهي من أنفس مكتبات العالم الإسلامي، إذ تحتوي على آلاف المخطوطات النادرة، منها أجزاء بخطوط الأئمة أنفسهم.

ما أروع أن تقف في المدرسة الظاهرية اليوم، بين جدرانها العتيقة، وتطالع مخطوطًا كتبه أحد الأئمة بيده قبل مئات السنين! تشعر أن الزمان قد توقف، وأنك تعيش بين أولئك الكبار الذين حملوا العلم أمانة وورّثوه لنا غضًّا طريًّا.

رابعًا: مدارس أخرى

المدرسة العزيزية:(٢) أنشأها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي، ودرّس فيها نخبة من العلماء.

---

(١) تقع اليوم في حي العمارة البرانية داخل دمشق القديمة، بالقرب من سوق الحميدية والجامع الأموي.

(٢) تقع في الجهة الغربية من الجامع الأموي الكبير بدمشق، عند باب البريد مباشرة.

واليوم لم يبق من بنائها الأصلي سوى المدخل وبعض الأحجار ملاصقًا للجامع الأموي من ناحية الغرب.

المدرسة الجوزية(١): نسبة إلى محيي الدين يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، وكان يقوم عليها والد ابن القيم الجوزي، وقد كانت منطلقًا لإشعاع لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، وغيرهما كثير، وكلها شواهد على أن دمشق لم تكن مدينة كسائر المدن، بل كانت معاهد مفتوحة ينهل منها طلاب العلم من كل مكان.

ما قيل في مدح دمشق من شعر

يصف البحتري، الشاعر العربي، حين دخل الخليفة المتوكل دمشق من باب داريا، ورأى بهاء المدينة وروعتها بقوله:

العيش في ليل داريا إذا برد ... والراح تمزجها بالراح من بردى

ويتابع مادحًا:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا

معنى الأبيات:

دارَيّا: بلدة معروفة بجوار دمشق.

بردى: نهر بردى الشهير في دمشق.

---

(١) تقع في وسط مدينة دمشق داخل الأسوار، في منطقة مئذنة الشحم مدخلها يتفرع شمالًا من سوق البزورية عند خان التتن، ويُقال: إنه يجاور القصر مباشرة من الغرب.

قولة: والراح تمزجها بالراح، إشارة إلى صفاء ماء بردى

والأبيات كلها من غرض المدح والوصف، تبين جمال دمشق وخيراتها.

أما أبو اليمن الكندي، فقد وصف عمران دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي (١١٧٤م)، حين بنى قصر الفقراء بجوار قصور الأغنياء:

إن نـــور الـــدين لمـــا أن رأى ... في البســـاتين قصـــور الأغنيـــاء

عَمَـــر الربـــوة قصرًـــا شـــامخًا ... نزهـــة مطلقـــةً للفقـــراء

وعندما دخلها العثمانيون دمشق، ظلت كما كانت، عاصمةً للعلم والعلماء، ذكر عبد القادر النعيمي الدمشقي (المتوفى ٩٢٧هـ) في كتابه الدارس في تاريخ المدارس، أن دمشق في القرن الخامس الهجري ضجت بالعلم، واحتوت على سبع دور للقرآن الكريم، وثمانية عشر دارًا للحديث، وسبعة وخمسين مدرسة للشافعية، واحد وخمسين مدرسة للحنفية، وأربع مدارس للطب، ومدرسة للهندسة.

وصف الأمير سديد الملك ابن منقذ الكناني هذا العمران قائلًا:

ومـــدارس لم تأتهـــا في مشـــكل ... إلا وجـــدت فتـــى يحـــلُّ المشـــكلا

وبهـــا وقـــوفٌ لا يـــزال مَغَلُّهـــا ... يســـتنقذ الأسرى ويغنـــى العـــيّلا

وأئمـــة تلقـــى الـــدروس وســـادة ... تشفى النفوس، وداؤها قـد أعضـلا

وأضاف:

إذا عنـــان اللحـــظ أطلقـــه الفتـــى ... لم يلـــق إلا جنـــة أو جـــدولا

أو روضـــــة أو غيضـــــة أو قبّـــــة أو بركـــــة أو ربـــــوة أو هـــــيكلا
أو واديًـــــا أو ناديًـــــا أو ملعبًـــــا أو مِـــذبنا، أو مجـــدلًا أو مـــوئلا(١)

(١) كل ما نقلته كان بنصه الموقع HTTPS://WWW.ALJAZEERA.NET/CULTURE/

الفصل السادس:

نبذ عن حماة وتدمر وغيرها:

أولًا: حماة:

مدينة عريقة على ضفاف نهر العاصي، وهي من أقدم مدن الشام، عُرفت بجمالها وخصب أرضها، وبنواعيرها الشهيرة التي صارت رمزًا لها، حيث تدور على النهر منذ مئات السنين لتسقي البساتين والحدائق.

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: حماة مدينة قديمة ذات أنهار وبساتين، وهي من أجمل بلاد الشام.(١)

وقد كانت حماة في تاريخها مركزًا علميًّا وفقهيًّا، فقد خرج منها علماء كبار، منهم:

ابن تيمية الجد (ت ٦٥٢هـ)، وهو جد شيخ الإسلام ابن تيمية.

والعلامة ابن الزملكاني (ت ٧٢٧هـ)، وكان قاضي القضاة في دمشق.

وكانت حماة أيضًا معقلًا للجهاد، إذ شارك أهلها في صدّ التتار، ووقفوا مع نور الدين، وصلاح الدين في معاركهم ضد الصليبيين.

---

(١) تبعد حماة عن دمشق نحو ٢١٠كم شمالًا، أي ما يقارب ٣ساعات بالسيارة.

ولأهلها عناية خاصة بمسائل العقيدة، حتى إنهم قصدوا شيخ الإسلام ابن تيمية ليسألوه عن مسائل دقيقة، فكتب لهم رسالته المشهورة بـ العقيدة الحموية الكبرى، التي صارت من عيون كتب العقيدة السلفية.

ثانيًا: تَدْمُر:

وتدمر(١) مدينة في بادية الشام، تُعرف بعروس البادية، وهي مدينة تاريخية عظيمة، ازدهرت في العصر الروماني، وصارت عاصمة لمملكة تدمر الشهيرة في عهد الملكة زنوبيا، ما زالت آثارها شاهدة إلى اليوم: الأعمدة الطويلة، والمعابد الضخمة، والطرقات المبلطة بالحجارة.

وقد مر بها خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتوح الشام، وكانت معقلًا حصينًا ثم فُتحت في عهده، لتدخل في حوزة الإسلام.

ولم تخلُ تدمر من أثر علمي وعقدي، أهلها جاؤوا إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وسألوه عن قضايا في الإيمان والصفات، فصنّف لهم رسالته المشهورة بالعقيدة التدمرية، التي عالج فيها أصول التوحيد، وقواعد الجمع بين النقل والعقل، فكانت شاهدًا على عناية أهل تدمر بالعلم والدين، كما كانت حماة شاهدًا من قبل.

وهناك بلدان أخرى كانت من البلدان المشهورة في سوريا قديما ومذكورة

---

(١) تبعد تدمر عن دمشق نحو ٢٤٠كم شمال شرق، أي ما يقارب ٣ ساعات ونصف بالسيارة.

بالعلم ولها تاريخ مثل:

بُصرى الشام:

وهي مدينة قديمة جنوب سوريا، ارتبطت بقصة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين خرج في تجارة مع عمه أبي طالب، ولقِيَه الراهب بحيرى في بُصرى، فكانت معلمًا تاريخيًا مذكورًا عند المؤرخين.

نوى:

وهي بلدة الإمام النووي، صارت تُذكر مقرونة باسمه، فيقال: النَّوَوي نسبةً إليها، وبقيت معروفة عند طلبة العلم بمولد هذا الإمام الكبير.

حرّان:

وكانت تعدّ من الشام قديمًا قبل أن تُلحَق بتركيا، وارتبطت بولادة شيخ الإسلام ابن تيمية، فكان يقال له: الحرّاني.

حلب:

وقد خرج منها أئمة كبار مثل ابن العديم صاحب بغية الطلب في تاريخ حلب، فصار اسم المدينة مقترنًا بموسوعته.

الفصل السابع:

الصحابة في الشام وبداية الدعوة فيها

أولا: دخول الشام في الإسلام:

فتحت الشام في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما تقدم سنة (١٤هـ)، بعد معارك مشهورة كأجنادين واليرموك، وكان فتح دمشق على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما تقدم، ومنذ ذلك الحين صارت الشام من أهم حواضر الإسلام، وميدانًا واسعًا للجهاد ونشر الدعوة.

ثانيا: استقرار الصحابة في دمشق وما حولها:

أقام عدد من كبار الصحابة في الشام، فصار لهم أثر بارز في تعليم الناس ونشر التوحيد والسنة ومنهم:

ذكر بعض الصحابة الذين كانوا في الشام:

١) **أبو عبيدة بن الجراح** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قائد الفتح وأمين الأمة، وتوفي في طاعون عمواس.

٢) **معاذ بن جبل**: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام العلماء بالحلال والحرام، ودفن بالأردن.

٣) **بلال بن رباح** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، سكن دمشق وتوفي فيها.

٤) **أبو الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قاضي دمشق وفقيهها، كان له حلق العلم المشهورة

في المسجد الأموي.

٥) **خالد بن الوليد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سكن حمص وتوفي فيها.

٦) **عبادة بن الصامت** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من نقباء الأنصار، أقام بفلسطين وتوفي في الرملة.

٧) **عبد الله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: زار الشام وحدث فيها.

٨) **شداد بن أوس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: توفي ببيت المقدس.

٩) **عبد الله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أقام في فلسطين ثم تنقّل في الشام.

كل هؤلاء وغيرهم كثير حتى جاء في «تاريخ دمشق» (١/ ٣٢٧) وساق بإسناده قال: قال: الوليد بن مسلم: دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.اهـ

قلت: وكل هؤلاء الصحابة الأخيار ساهموا في بلاد الشام في نشر العلم والفقه، فكان المسجد الأموي وغيره مدارس علمية تُقرأ فيها كتب الحديث والقرآن ونشر التوحيد وأسسوا لبناء المجتمع الشامي على العقيدة الصحيحة والتربية الإيمانية.

١٠)**معاوية بن أبي سفيان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمؤسس الأول للدولة الأموية

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، ولد في مكة قبل البعثة بخمس سنين تقريبًا، في بيت من أشرف بيوت قريش نسبًا وسؤددًا، نشأ في بيئة السيادة والزعامة، فوالده أبو سفيان من زعماء قريش في الجاهلية

والإسلام، وأمه هند بنت عتبة صاحبة الرأي والمكانة، أسلم يوم فتح مكة سنة (٨ هـ)، وكتب الله له بعد ذلك شرف صحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وخدمته ككاتب للوحي، وبعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، استقر بالمدينة فترة في خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم ولاه الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمرة الشام بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان الذي كان واليًا عليها، فنزل دمشق وجعلها مقر إمارته، وأدار شؤونها بالحكمة والبصيرة، حتى أحبّه الناس لعدله ورفقه، وكان من أمهر ولاة المسلمين سياسةً وتدبيرًا.

فأحسن السيرة وأدار شؤون الناس بالحكمة والحزم، ثم ثبّت الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولايته على دمشق، فصار من كبار ولاة الصحابة، يُضرب المثل برجاحة عقله، ودهائه، وحسن تدبيره.

وقال ولي الله الدهلوي رحمه الله: إن الإنسان لو أراد أن يسند حديثًا في عصرنا هذا لا يمكنه أن يجد إسنادًا لا يمر بالدمشقيين. اهـ من العقد الفريد في اتصال الأسانيد لإبراهيم الموصلي نقلته من الكاب بواسطة.

الفصل الثامن:

تأسيس الدولة الأموية

بعد الفتنة الكبرى ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اجتمعت الكلمة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأسس الدولة الأموية سنة (٤١هـ)، وهو العام الذي سُمّي عام الجماعة، إذ اجتمع فيه المسلمون بعد الفرقة، وصارت دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية الأولى بعد المدينة.

أثره في الشام ودمشق:

جعل دمشق مركز الخلافة ومقر الحكم، ومنها انطلقت الفتوحات شرقًا إلى ما وراء النهر، وغربًا إلى الأندلس.

بنى دار الإمارة بجوار المسجد الأموي، لتكون مقر الحكم والسياسة بجانب المسجد الذي هو موضع العبادة والعلم.

بعض مناقب معاوية وفضائله:

١) فمن مناقبه دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ له بالهداية:

فعن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال لمعاوية: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ بِهِ» رواه الترمذي (٣٨٤٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٤)، وهذا منقبة عظيمة، إذ جمع له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بين أن يكون هاديًا في نفسه، مهديًا لغيره، فصار دعاؤه

هذا شرفًا باقيًا.

٢) ومن مناقبه كونه من كتَّاب الوحي:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنْتُ غُلَامًا أَسْعَى مَعَ الصِّبْيَانِ، قَالَ: فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا نَبِيُّ اللهَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خَلْفِي مُقْبِلًا، فَقُلْتُ: مَا جَاءَ نَبِيُّ اللهَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا إِلَيَّ، قَالَ: فَسَعَيْتُ حَتَّى أَخْتَبِئَ وَرَاءَ بَابِ دَارٍ، قَالَ: فَلَمْ أَشْعُرْ حَتَّى تَنَاوَلَنِي، قَالَ: فَأَخَذَ بِقَفَايَ، فَحَطَأَنِي حَطْأَةً، قَالَ: «**اذْهَبْ فَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ**»، وَكَانَ كَاتِبَهُ، قَالَ: فَسَعَيْتُ، فَقُلْتُ: أَجِبْ نَبِيَّ اللهَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ عَلَى حَاجَةٍ. رواه أحمد في مسنده (٢٦٥١) وحسنه محققوا المسند (٥/ ٢١٧ ط الرسالة)، وشرف كتابة الوحي لا يناله إلا الأجلة من الصحابة، وهو دليل على مكانته عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فالحديث يبيّن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يعتمد على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابة الوحي والرسائل، إذ أرسل ابن عباس لينادِيه، فاستجاب فورًا، مما يدل على قربه من مجلس الرسول وثقته به، وفيه شاهد على أن معاوية كان كاتبًا ثابتًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لا كما يدّعي بعض المبطلين المجرمين الروافض.

كما أنه يظهر في الحديث منزلة الصحابة الذين خدموا الدين بالكتابة والحفظ، وأن الكتابة كانت وظيفة عظيمة في زمن الوحي.

ومن الفوائد أيضًا: إثبات شرف معاوية بملازمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأنه كان مأمورًا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نفسه في شأن الوحي.

والخلاصة: أن هذه الرواية من أوضح الأدلة على منقبة كبرى له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣) ومن مناقبه إشارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بجيشه في البحر:

عن أم حرام بنت ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا**»، قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا فِيهِمْ، قَالَ: «**أَنْتِ فِيهِمْ**» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**»، فَقُلْتُ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**لَا**». رواه البخاري (٢٩٢٤)، ومسلم (١٩١٢).

هذا الحديث بشارة عظيمة لأوائل المسلمين الذين ركبوا البحر للجهاد، وأن الله قد أوجب لهم الجنة والمغفرة، وقد تحقق ذلك زمن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان القائد هو معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه دليل واضح على فضل معاوية، إذ نال شرف قيادة الجيش المبشَّر بالجنة، كما يدل الحديث على أن الغزو في البحر عبادة عظيمة لها ثواب خاص.

ومنقبة معاوية هنا أنه أول من أدخل هذا الباب في الإسلام بإذن الخليفة، فصار سببًا في تحقيق وعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

٤) ومن مناقبه دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ له بالأمانة:

عن العِرْباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَقِهِ الْعَذَابَ**» رواه أحمد (١٧١٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٧).

هذا دعاء صريح من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفضيلتين عظيمتين: أن يُعلِّم الكتاب (أي: علم القرآن والكتابة) وأن يُوقى العذاب، ودعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مستجاب، فهو شهادة له بالعلم والنجاة، وكونه دعاءً خاصًا لمعاوية يدل على عناية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ به ومحبته له، كما أن هذه المنقبة تبطل شبهات من انتقصه من الزنادقة، إذ لا يدعو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا لمن يستحق الكرامة، فهي فضيلة جليلة تضاف إلى بقية مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥) ومن مناقبه ما وصفه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا كَانَ أَخْلَقَ لِلْمُلْكِ مِنْ مُعَاوِيَةَ، إِنْ كَانَ النَّاسُ لَيَرِدُونَ مِنْهُ عَلَى وَادِي الرَّحْبِ وَلَمْ يَكُنْ كَالضَّيِّقِ الْحَصِيصِ الضَّجِرِ الْمُتَغَضِّبِ. رواه الخلال في السنة (٦٧٧).

وهذا وصف دقيق من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لحلم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسعة صدره في معاملة الرعية، شبّهه بالوادي الرحب الذي يتسع لكل من يرد إليه، بخلاف الملوك الضيّقين الذين يضجرون بسرعة، وهذه شهادة عظيمة من عالم الصحابة في حسن سياسة معاوية ورجاحة عقله، وأنه كان مؤهلًا للإمارة والملك، كما يظهر فيها سبب اجتماع الناس حوله وثبات دولته، إذ السياسة تحتاج إلى الصدر الواسع والحلم الكثير.

٦) ومن مناقبه اجتماع المسلمين على بيعته وسمي ذاك العام بعام الجماعة:

فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو على المنبر: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» رواه البخاري (٢٧٠٤).

وهذا تحقق سنة (٤١هـ) حين تنازل الحسن لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فاجتمع المسلمون على بيعته، فسُمّي ذلك العام بعام الجماعة.

هذا الحدث التاريخي العجيب كان مصداقًا لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحسن، ودخل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذا الفضل، إذ ببيعته اجتمع شمل الأمة وحقن الدماء، فهو منقبة عظيمة له، إذ صار أول خليفة بعد الخلفاء الراشدين اجتمعت عليه الكلمة، وسُمّي عامه بعام الجماعة، وهذا دليل على رجاحة عقله وحكمته، وعلى أن ولايته كانت انعقادًا شرعيًا بإجماع الأمة في ذلك الوقت.

والخلاصة: أن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو المؤسس الأول للدولة الأموية، وصانع التحول التاريخي الذي جعل دمشق قلب العالم الإسلامي لعقود طويلة، وقد جمع بين شرف الصحبة، وفضل الجهاد، ودهاء السياسة، وحلم القادة، حتى صار مضرب المثل في الإدارة والقيادة.

فائدة في بيان خلفاء بني أمية

بدأت خلافتهم من سنة (٤١هـ) وهو عام الجماعة حين تنازل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاجتمع المسلمون على بيعته.

وانتهت سنة (١٣٢هـ) بسقوط الدولة الأموية على يد العباسيين، ومقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد الحمار، يعني أن مدة حكم بني أمية كانت من سنة

(٤١هـ) إلى سنة (١٣٢هـ)، أي حوالي (٩١) سنة.

وإليك تفصيل ذلك:

الأول: معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سنة (٤١هـ) إلى سنة (٦٠هـ)، مدة حكمه (١٩) سنة.

الثاني: يزيد بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٦٠هـ) إلى سنة (٦٤هـ)، مدة حكمه (٤) سنوات.

الثالث: معاوية بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٦٤هـ) إلى سنة (٦٤هـ)، مدة حكمه نحو (٤٠) يومًا.

الرابع: مروان بن الحكم رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٦٤هـ) إلى سنة (٦٥هـ)، مدة حكمه (٩) أشهر.

الخامس: عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٦٥هـ) إلى سنة (٨٦هـ)، مدة حكمه (٢١) سنة.

السادس: الوليد بن عبد الملك رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٨٦هـ) إلى سنة (٩٦هـ)، مدة حكمه (١٠) سنوات.

السابع: سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٩٦هـ) إلى سنة (٩٩هـ)، مدة حكمه (٣) سنوات.

الثامن: عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ من سنة (٩٩هـ) إلى سنة (١٠١هـ)، مدة حكمه سنتان ونصف.

التاسع: يزيد بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٠١هـ) إلى سنة (١٠٥هـ)، مدة حكمه (٤) سنوات.

العاشر: هشام بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٠٥هـ) إلى سنة (١٢٥هـ)، مدة حكمه (٢٠) سنة.

الحادي عشر: الوليد بن يزيد بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٢٥هـ) إلى سنة (١٢٦هـ)، مدة حكمه سنة وبضعة أشهر.

الثاني عشر: يزيد بن الوليد (يزيد الثالث) رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٢٦هـ) إلى سنة (١٢٦هـ)، مدة حكمه (٦) أشهر.

الثالث عشر: إبراهيم بن الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٢٦هـ) إلى سنة (١٢٦هـ)، مدة حكمه شهران تقريبًا.

الرابع عشر: مروان بن محمد (الحمار) رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سنة (١٢٧هـ) إلى سنة (١٣٢هـ)، مدة حكمه (٥) سنوات.

الفصل التاسع:

المسجد الأموي

المسجد الأموي الكبير (١) بدمشق هو درّة تاجها، ومعْلَمها الأبرز الذي يفاخر به أهل الشام، ويُعدّ من أعظم المساجد الإسلامية، بل ومن أقدمها وأشهرها، تاريخه حافل بالأحداث، وجدرانه تنطق بمآثر القرون، وقد اجتمع فيه جمال العمارة مع عظمة الرسالة، حتى صار رمزًا خالدًا في قلب كل مسلم يذكر دمشق.

تاريخه وتأسيسه:

كان موضع المسجد الأموي في الأصل معبدًا وثنيًا للرومان، ثم حُوِّل إلى كنيسة باسم: يوحنا المعمدان، ثم لما فُتحت دمشق في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة (١٤ هـ)(٢) صارت نصفه كنيسة ونصفه الآخر مسجدًا للمسلمين(١)، وبقي

---

(١) سُمّي المسجد الأموي نسبةً إلى بني أمية؛ لأن الذي تولّى تشييده بصورته العظيمة المعروفة هو كما سيأتي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)، فقد بدأ البناء سنة ٨٦هـ، واستمر العمل فيه عشر سنوات حتى اكتمل، فصار تحفة معمارية فريدة في ذلك العصر، وقد أنفق عليه أموالًا طائلة، وجلب له أمهر الصناع من أنحاء الدولة، حتى صار يُعرف بالجامع الأموي، تمييزًا له عن سائر الجوامع.

(٢) وكان القائد في هذه الحملة أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ =

الأمر على ذلك الحال نحو سبعين سنة، حتى جاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي تولّى الخلافة في سنة (٨٦هـ) (٧٠٥م)، وبقي فيها إلى سنة (٩٦هـ) (٧١٥م)، فشرع في تشييد المسجد الأموي على أبهى صورة، وجعله

=

قائدًا ميدانيًا بارزًا، وذلك بعد الانتصار العظيم في معركة أجنادين التي فتحت الطريق إلى دمشق، وحصل الاختلاف المشهور: خالد دخلها عنوة من الباب الشرقي، بينما أبو عبيدة صالح أهلها من باب الجابية، فلما جاء الخبر إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أمضى الصلح، وقال: اجعلوها صلحًا، وبذلك فُتحت دمشق في سنة (١٤هـ / ٦٣٥م) وبعض المؤرخين قالوا: في آخر (١٣هـ / ٦٣٤م).

فائدة: معركة أجنادين كانت أول مواجهة كبرى بين المسلمين والروم البيزنطيين في بلاد الشام، قرب موضع يُعرف اليوم ببيت جبرين بين الرملة وبيت المقدس، وبلغ عدد جيش المسلمين نحو ٢٠ ألفًا، بينما كان الروم أضعافهم عددًا وعتادًا، ومع ذلك انتصر المسلمون نصرًا ساحقًا، فقتلوا من الروم أعدادًا كبيرة، وفرّ الباقون نحو دمشق وغيرها، وكان هذا الانتصار هو الذي فتح الباب أمام حصار دمشق، ومهّد لدخولها تحت راية الإسلام.

(١) **قال الحافظ الذهبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (٦/ ١٦): وَيُقَالُ: إِنَّ فِيهَا شَرَعَ الْوَلِيدُ بِبِنَاءِ الْجَامِعِ، وَكَانَ نِصْفُهُ كَنِيسَةً لِلنَّصَارَى، وَعَلَى ذَلِكَ صَالَحَهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ الْوَلِيدُ لِلنَّصَارَى: إِنَّا قَدْ أَخَذْنَا كَنِيسَةَ تُومَا عَنْوَةً، يَعْنِي: كَنِيسَةَ مريم، فأنا أهدمها، وكانت أكبر من النِّصْفِ الَّذِي لَهُمْ، فَرَضُوا بِإِبْقَاءِ كَنِيسَةِ مَرْيَمَ، وَأُعْطُوا النِّصْفَ وَكَتَبَ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَالْمِحْرَابُ الْكَبِيرُ هو كان باب الكنيسة. اهـ

جامعًا يليق بعاصمة الخلافة الإسلامية يومئذٍ، فوسَّع المسجد، واشترى نصيب النصارى من الكنيسة بالمال، وجعل المكان كله مسجدًا عظيمًا فخمًا، فكان المسجد الأموي الكبير الذي نراه اليوم، وهو من أعظم مساجد الإسلام وأبدعها عمارة وزخرفًا(١)، فأمر ببناء المسجد الكبير على أنقاض الكنيسة كلها، وشيّده بأفخم ما عُرف من العمارة في وقته، حتى قيل: إن الوليد أنفق عليه خراج الشام سبع سنين.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (٦/ ١٦):

وَجَمَعَ عَلَيْهِ الْوَلِيدُ الْحَجَّارِينَ وَالْمُرَخِّمِينَ مِنَ الأَقْطَارِ، حَتَّى بَلَغُوا فِيمَا قِيلَ اثْنَيْ عَشْرَ أَلْفَ مُرَخِّمٍ، وَغَرِمَ عَلَيْهَا قَنَاطِيرَ عَدِيدَةً مِنَ الذَّهَبِ، فَقِيلَ: إِنَّ النَّفَقَةَ عَلَيْهِ بَلَغَتْ سِتَّةَ آلافِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَذَلِكَ مِائَةُ قنطارٍ وَأَرْبَعَةُ وَأَرْبَعُونَ قِنْطَارًا بِالْقِنْطَارِ الدِّمَشْقِيِّ. اهـ

---

(١) مع ما بلغ إليه المسجد الأموي من بديع العمارة، وكثرة الزخارف، إلا أن الإسراف في زخرفة المساجد وتزويقها أمر منهيّ عنه في الشرع، لما فيه من إشغال القلوب عن الخشوع، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ**» رواه أبو داود (٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢١) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في البخاري معلقًا: «**يَتَبَاهَوْنَ بِهَا ثُمَّ لاَ يَعْمُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا**»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وقد أجمع العلماء على أن المقصود بالمسجد هو العبادة وذكر الله، لا التباهي بالمباني والزينة.

أثره العلمي والدعوي قديما :

لم يكن المسجد الأموي مجرد بناء للصلوات، بل كان منارة للعلم، جلس فيه كبار العلماء، وتصدروا للتدريس والوعظ والرد على الصوفية والأشاعرة، وعُقدت فيه حلقات الحديث والتفسير، ومنه انتشرت الدعوة السلفية عبر القرون، رغم محاولات الطمس من أهل البدع، ولا ريب أن الداخل إلى الجامع الأموي اليوم يستشعر مهابة الإسلام وجلال تاريخه، فكل جدار يشهد بمجد، وكل زاوية تروي قصة علم وجهاد، غير أن الناظر لا يخفى عليه ما دخل على هذا الصرح العظيم من مظاهر البدع شتّان ما بين حال السلف يوم كان المسجد منارة للتوحيد والقرآن، وبين ما صار إليه في بعض العصور من مزج الحق بالباطل، ومن هنا يتأكد على أهل العلم والدعوة أن يُبيّنوا للناس الحق في هذا المقام، فيردّوهم إلى السنة، ويذكّروهم بأن فضل الجامع الأموي لا يُنال إلا بمتابعة هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته، لا بالغلو والبدع.

مما قيل في المسجد الأموي :

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «البداية والنهاية» (١٢/ ٥٨٣ ت التركي):

وَلَمَّا دَخَلَ الْمَهْدِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبَّاسِيُّ دِمَشْقَ يُرِيدُ زِيَارَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، نَظَرَ إِلَى جَامِعِ دِمَشْقَ، فَقَالَ لِكَاتِبِهِ أَبِي عُبَيْدِ اللهِ الْأَشْعَرِيِّ: سَبَقَنَا بَنُو أُمَيَّةَ بِثَلَاثٍ؛ بِهَذَا الْمَسْجِدِ، لَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَهُ، وَبِنُبْلِ الْمَوَالِي، وَبِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، لَا يَكُونُ وَاللهِ فِينَا مِثْلُهُ أَبَدًا، ثُمَّ لَمَّا أَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَنَظَرَ إِلَى الصَّخْرَةِ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ هُوَ الَّذِي بَنَاهَا قَالَ لِكَاتِبِهِ: وَهَذِهِ رَابِعَةٌ.

وَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ دِمَشْقَ فَنَظَرَ إِلَى جَامِعِهَا، وَكَانَ مَعَهُ أَخُوهُ الْمُعْتَصِمُ، وَقَاضِيهِ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، قَالَ: مَا أَعْجَبُ مَا فِيهِ؟ فَقَالَ أَخُوهُ: هَذِهِ الْأَذْهَابُ الَّتِي فِيهِ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: هَذَا الرُّخَامُ، وَهَذِهِ الْعُقَدُ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ: إِنَّمَا أَعْجَبُ مِنْ حُسْنِ بُنْيَانِهِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ مُتَقَدِّمٍ، ثُمَّ قَالَ الْمَأْمُونُ لِقَاسِمٍ التَّمَّارِ: أَخْبِرْنِي بِاسْمٍ حَسَنٍ أُسَمِّي بِهِ جَارِيَتِي هَذِهِ، فَقَالَ: سَمِّهَا مَسْجِدَ دِمَشْقَ؛ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ شَيْءٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، عَنِ الشَّافِعِيِّ قَالَ: عَجَائِبُ الدُّنْيَا خَمْسَةٌ: أَحَدُهَا: مَنَارَتُكُمْ هَذِهِ -يَعْنِي: مَنَارَةَ ذِي الْقَرْنَيْنِ- الَّتِي بِإِسْكَنْدَرِيَّةَ، وَالثَّانِيَةُ: أَصْحَابُ الرَّقِيمِ، وَهُمْ بِالرُّومِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَالثَّالِثَةُ: مِرْآةٌ بِبَابِ الْأَنْدَلُسِ عَلَى بَابِ مَدِينَتِهَا، يَجْلِسُ الرَّجُلُ تَحْتَهَا، فَيَنْظُرُ فِيهَا صَاحِبَهُ مِنْ مَسَافَةِ مِائَةِ فَرْسَخٍ، وَالرَّابِعُ: مَسْجِدُ دِمَشْقَ، وَمَا يُوصَفُ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، وَالْخَامِسُ: الرُّخَامُ وَالْفُسَيْفِسَاءُ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَى لَهُمَا مَوْضِعٌ، وَيُقَالُ: إِنَّ الرُّخَامَ مَعْجُونٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَذُوبُ عَلَى النَّارِ. اهـ

الفصل العاشر:

الواقع المعاصر للمسجد الأموي بين السنة والبدعة

لم يكن المسجد الأموي مجرد معلم تاريخي، بل كان يومًا من أعظم منابر العلم والجهاد في الإسلام كما تقدم، لكن الواقع الذي نعاينه اليوم يكشف عن تغلب البدع والمنكرات، حتى غطت على جلالة المكان وبهائه، وهذا مما يبعث الغيرة في قلب كل مسلم يغار على دين الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وإنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، فلم يترك لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرنا منه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن زاد في هذا الدين شيئًا لم يشرعه الله ولا رسوله فقد ناقض كماله، واتَّبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال جل شأنه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقد جاءت السنة النبوية صريحة في ردّ كل محدثة في الدين، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يعلن في خطبه: «وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ

ضَلَالَةٌ» رواه مسلم (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحذّر الأمة بقوله: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٥) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خان الرسالة.

فالأصل الذي لا مرية فيه: أن العبادات توقيفية، لا يُشرع منها إلا ما ثبت بالدليل الصحيح، وأي مظهر ديني لم يكن عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فهو مردود ومذموم، ولو استحسنه الناس وزخرفوه.

ومن هذا المنطلق، سنقف عند جملة من البدع والمنكرات التي تُمارَس اليوم في المسجد الأموي الكبير بدمشق، مخالفةً لهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ولطريقة السلف الصالح.

فمن البدع والمنكرات التي تحصل اليوم فيه وشاهدت بعضها:

١) بدعة الأذكار الجماعية قبل الخطبة بساعة:

مما يُفعل في المسجد الأموي أن يقوم أحد الأشخاص بالإمساك بالمكبر فيرفع صوته بالأذكار والأدعية، وفي بعض الأحيان الناس خلفه يرددون جماعة بصوت واحد، وكأنها شعيرة ثابتة قبل الجمعة، وهذا لم يكن من هدي النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل هو من البدع المحدثة، فالذكر في الأصل عبادة فردية، يجهر بها المسلم أو يُخفيها كما شاء، دون تقليد جماعي على هيئة معينة، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقد نص العلماء أن اتخاذ مثل هذا الذكر في المساجد بدعة، لأنه تخصيص للعبادة بزمان وكيفية لم يُشرعها الشرع.

وقد روى الدارمي بسند صحيح: أن ابن مسعود رأى في المسجد قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً -فهولاء مجتمعون على ذكر- فأَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيءٌ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ، هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحِي بَابِ ضَلاَلَةٍ، قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ. اهـ بتصرف.

قال فضيلة شيخنا عبد المحسن العباد في شرح سنن أبي داود: فهذا أثر ثابت عن عبد الله بن مسعود، أنكر عليهم هذا الفعل، وهو كونهم يسبحون تسبيحًا جماعيًا بالحصى، وكل ذلك خلاف السنة.

وقال: وإنَّما أنكر عليهم مفارقتهم للسنة في صفة أدائه وكيفيةِ القيام به. اهـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما كونهم يتحلقون ويجتمعون على هذا الأمر، هذا يسبح كذا، وهذا يقول كذا، أو كل واحد عليه قول معروف، إذا فرغ شرع الآخر، فهذا هو الذي أنكره عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين خرج على قوم في مسجد الكوفة وهم متحلقون يقول لهم أحدهم: سبحوا مائة، افعلوا كذا، فيعدون الحصى، فأنكر عليهم. اهـ.

٢) بدعة قراءة سورة الكهف عبر المكبّر

الثابت في السنّة أن تُقرأ سورة الكهف يوم الجمعة(١)، لكن كلٌّ يقرأها بنفسه في بيته أو مسجده دون رفع الصوت بشكل جماعي، أما ما يُفعل اليوم من قراءة لها عبر مكبرات الصوت فهو من البدع المحدثة، إذ لم يُنقل عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولا عن أصحابه بأنهم كانوا يقرؤونها بشكل جماعي.

٣) بدعة الأذان الجماعي (يسمونه جوقة المؤذنين)(٢)

---

(١) على خلاف بين أهل العلم في الحديث المروي في ذلك، فمنهم من يرى أنه موقوف على أبي سعيد الخدري، وله حكم الرفع، وهو الصحيح.

(٢) الأذان في جوقة المؤذنين بالجامع الأموي يُؤدَّى على مقامات موسيقية اخترعها المتأخرون، وجعلوها علامة لأيام الأسبوع، حتى يُعرف اليوم بالمقام الذي يُرفع به الأذان، وهذا من البدع التي لم يعرفها السلف، وقد قرر العلماء أن الأذان عبادة توقيفية، لا يجوز أن يُغيَّر لفظه ولا كيفيته، ولا أن يُدخل عليه التطريب أو التلحين الخارج عن حد الاعتدال، فكيف بجعل أذانه =

الأذان عبادة توقيفية لم يُعرف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا الصحابة ولا السلف أنهم أذّنوا به جماعة أو وزّعوه بينهم، وما يُسمّى اليوم في الجامع الأموي بجوقة المؤذنين، وهذا اصطلاح شامي اشتهر خصوصًا في المسجد الأموي بدمشق، حيث عُرف أذانهم بالأذان الجماعي، أو الأذان السلطاني، ويُؤدَّى بأسلوب موسيقي موروث يجعل له وقعًا شبيهًا بالغناء حيث يردّد المؤذنون الأذان بصوت واحد أو يقسّمونه بينهم على مقامات موسيقية.

وقد أجمع العلماء على إنكاره، وأنه بدعة لا أصل لها.

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «جامع تراث العلامة الألباني في الفقه» (٢/ ٣٤٦): وهنا يرِد موضوع الذكر الجماعي الذي يعرف في بعض البلاد كسوريا بالجُوق أو الجَوق أي: جماعةً، وكانوا -وربما لا يزلون حتى الآن- يؤذنون خمسة أو أكثر من مؤذنين؛ وفي المنارة وفي أكبر مسجد في دمشق أذانًا واحدًا بصوت واحد، ومع ذلك فبعد أن وجدت مكبرات الصوت هذه فأيضًا لا يزالون يستمرون على هذه البدعة وهي بدعة الجوق أي الأذان الجماعي، وهذا ليس بمشروع. اهـ

والحاصل: أن هذا الفعل بدعة محدثة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**» رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

= تابعًا لمقامات موسيقية دنيوية!

٤) ومن البدع المنبر المرتفع جدًّا

من البدع التي استحدثت في المسجد الأموي جعل منبر ضخم مرتفع يقارب العشر درجات، يُلقي منه خطباء الأشاعرة والصوفية خطبًا في موضوعات لا تنفع الناس، وقد كان منبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من ثلاث درجات فقط، يعلوها بالخشوع والتواضع، لا بالزخرفة والعلو، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ» رواه أحمد (١٨٥١)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣٨٦٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥) ومن المنكرات اختلاط الرجال بالنساء في الساحة

ومن المنكرات البارزة في المسجد الأموي: اختلاط النساء بالرجال في ساحاته الواسعة، ولا سيما عقب خطبة الجمعة وبعد الصلوات، حيث تخرج النساء جنبًا إلى جنب مع الرجال، وفيهن من تكون بغير الحجاب الشرعي الكامل، مما يسبّب فتنة عظيمة، ويخالف أمر الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومما شاهدته حرص رجال الأمن في الدولة الجديدة -جزاهم الله خيرًا- على الترتيب، وسعيهم الحثيث في منع الفوضى وضبط الصفوف، وفصل الرجال عن النساء في الطرقات والممرات، وهذا جهد يُشكرون عليه، ومع ذلك يظل هذا المنكر قائمًا أحيانًا بسبب تساهل الناس، وتقصير الخطباء في هذا المسجد الذي يقصده الناس من كل مكان في توعية المصلين بخطورته، إذ لا يعتنون بالتذكير

بوجوب غض الأبصار، والأمر بالحجاب الشرعي، ووجوب سدّ الذرائع الموصلة للفتنة.

وليس هذا بالأمر الهيّن، فقد جاء الشرع بالتحذير الشديد من أسباب الفتنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٩٧) عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو قام خطباء هذا المسجد بدورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوضحوا للناس ما يجب من آداب المساجد، لانقطع هذا المنكر أو قلّ على الأقل.

٦) ومن المنكرات التصوير بالكاميرات

تنتشر الكاميرات في المسجد حتى وقت الخطبة، ويقوم بعض الناس بتصوير الخطيب أو المصلين بلا إنكار، وقد جاء في حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ» رواه البخاري (٣٣٢٢) ومسلم (٢١٠٦)، فكيف يُترَك هذا المنكر في بيت الله العظيم بدمشق وغيره من المساجد في كثير من بلاد الله؟

٧) ومن المنكرات التكبير الجماعي أثناء الخطبة

من العادات المنتشرة أن يكبر الناس بصوت عالٍ أثناء خطبة الجمعة إذا أثار الخطيب حماستهم، وهذا يُشوش على الخطبة ويخالف هدي السلف، إذ لم يُنقل عن الصحابة أنهم قاطعوا خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالتكبير أو الهتاف، بل كانوا ينصتون بوقار، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ» رواه البخاري (٩٣٤) ومسلم

(٨١٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨) ومن المنكرات التي رأيتها إسبال الخطيب والمؤذنين للثياب

من المنكرات التي رأيتها في المسجد الأموي وغيره من المساجد في بلاد سوريا وغيرها إسبال الثياب من قبل بعض الخطباء والمؤذنين، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ» رواه البخاري (٥٧٨٧)، وكم يؤلم أن يكون أهل المنابر أول من يُخالفون السنّة في هيئاتهم.

٩) من المؤسفات موضوعات الخطبة

فمما يُؤسَف له أن كثيرًا من خطب الجمعة في كثير من مساجد سوريا ومنها المسجد الأموي وفي كثير البلاد الإسلامية ولا سيما التي يتحكم فيها أهل البدع والتحزب صارت بعيدة عن المقصد الشرعي الذي شرعه الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، إذ تفرغت لأمور لا تعود على الناس بالنفع، كالإكثار من المدائح الصوفية، أو القصص المكذوبة أو السياسات وما يخدم التحزبات التي لا تُحيي إيمانًا ولا تُقوِّي يقينًا، بينما الخطبة في أصلها شعيرة جليلة، ومقصدها الأعظم تذكير الناس بالله وكتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٩]، فسمّى الله الخطبة والصلاة كلها ذِكرًا لله، والمراد به: التذكير بالقرآن والوعظ بالسنّة.

وقد جاءت خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جامعةً مانعة، قصيرة المبنى عظيمة المعنى، يفتتحها بحمد الله والثناء عليه، ثم يذكّر الناس بالتوحيد، ويرسّخ فيهم أصول العقيدة، ويحذّرهم من الشرك والبدع والمعاصي، ويأمرهم بالاتباع والتمسك بالسنّة، ويعالج حاجات الناس وقضاياهم الواقعية. فخطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم تكن حشوًا ولا مدائح ولا قصصًا للتسلية، بل كانت موعظة بليغة تُحيي القلوب وتوقظ الغافلين، كما وصفها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وعظنا موعظة بليغه وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون.

إذن، وظيفة خطبة الجمعة الأصلية أن تكون منبر توحيدٍ واتباعٍ وتذكيرٍ بالقرآن والسنّة، لا منبرَ بدعٍ وقصصٍ لا ثمرة لها، فإن الخطبة إن لم تُقوِّم العقيدة، وتثبّت الإيمان، وتزكّي النفوس، وتُصلح الواقع، فقد فقدت مقصدها الشرعي.

١٠) بدعة المولد النبوي في المسجد الأموي

من المؤسف أن المسجد الأموي –وهو من أعظم مساجد المسلمين تاريخًا وعمرانًا– أصبح مسرحًا لكثير من البدع الاحتفالية والشعائر المحدثة التي لا أصل لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ(١)، ومن أبرزها:

---

(١) المولد النبوي من البدع المحدثة التي لم يفعلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه الكرام، ولا أحد من السلف الصالح، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة:٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» رواه =

الاحتفال بالمولد النبوي البدعي داخل المسجد: حيث تُقام فيه تجمعات كبيرة يرفع فيها المنشدون أصواتهم بالأناشيد المحدثة، ويُضرب فيها بالدفوف والطبول، ويتمايلون بالرقص وغير ذلك والله المستعان

ولقد شاهدنا وشاهد كثير من الناس المقاطع المصورة عبر الوسائط كيف تُقام هذه الطقوس في المسجد الأموي، حيث يُضرب بالدفوف، وتتعالى أصوات الطبول، ويتمايل الذاكرون يمنة ويسرة، ويصفقون، ويهتزون على نغمات الأناشيد، وهذا كله مخالف لهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي كان ذكره سكونًا ووقارًا وخشوعًا، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فكيف يُجعل بيت الله -الذي شُرع لأن يكون محل توحيد واتباع- ساحة لمظاهر اللهو والرقص والبدع؟! إن هذا من أعظم ما يجب إنكاره، لأنه يغيّر

=

البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأول من أحدثه الفاطميون في القرن الرابع الهجري بمصر، كما نص على ذلك العلماء.

وأجمع أئمة الإسلام على إنكاره، وأنه من جملة البدع المحدثة في الدين، ولم يفعله السلف مع قيام المقتضي له وعدم المانع، ولو كان خيرًا محضًا أو راجحًا لكان السلف أحق به، فلا أثر للمولد في القرون المفضلة، ولا عند الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة الأربعة، وإنما هو من محدثات القرون المتأخرة التي شاعت عند أهل البدع، دون أن يعرفها أهل الإسلام الأوائل ولا جمهور الأمة في عصورها الأولى.

صورة الدين في قلوب العامة، ويُظهره في صورة طقوس طربية لا في صورة عبادة ربانية قائمة على الاتباع.

امتداد هذه المظاهر إلى قسم النساء:

وليس الأمر مقصورًا على صحن الرجال فقط، بل إن بعض هذه الاحتفالات وحلقات الذكر تقام أيضًا في جانب النساء من المسجد، حيث تجتمع النسوة في حلقات مماثلة بالتمايل والتصفيق وضرب الدفوف والغناء، وهذا يزيد الخطر ويضاعف الفتنة، إذ يجرّ النساء إلى طقوس بدعية تُخرج المسجد عن رسالته الأصلية في التعليم والذكر المشروع إلى ميادين اللهو والابتداع.

١١) التبرك بجدران المسجد وأعمدته وزيارة المقامات والمزارات

من البدع المنتشرة في دمشق، والتي تحصل في المسجد الأموي وما حوله(١) ما ترتبه النساء –وبعض الرجال تبعًا لهن– من زيارة المقامات والمزارات، وقد صار هذا عندهن كأنه عقيدة ثابتة لا تتغير، وقد عدّ الإمام **ابن الحاج المالكي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه المدخل (١/ ١٩٠) كثيرًا من هذه العوائد الرديئة التي درجت عليها النساء.

فمن ذلك: **قصدهن الجامع الأموي صباح السبت**، والازدحام على ما يُسمى بالمقام اليحيوي، حيث يزعمون أنه مقام يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(٢)، فيطُفن حوله

---

(١) **تنبيه:** هذه البدع لم أشاهدها، وإنما قرأتها في الكتب.

(٢) وقد شاع ذلك بين كثير من العامة، وهو باطل لا أصل له، إذ لم يثبت في كتاب ولا سنة، =

ويتناجَين بالدعاء، ويعتقدن أن المداومة على هذا العمل أربعين سبتًا تجلب البركة أو تحقق المقاصد! وهذا من أبطل الباطل، إذ لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا عن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شيء من ذلك، بل هو من خرافات الصوفية.

ومن ذلك أيضًا: تخصيص يوم الجمعة لزيارة المزارات في حي الصالحية وغيره

ولا عن صحابي ولا إمام معتبر أن قبر يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ في دمشق، بل قد تقرر عند أهل العلم أنه لا يُعلم على وجه الجزم قبر نبي من الأنبياء إلا قبر نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المدينة النبوية، وما عدا ذلك مجرد دعاوى لا تقوم عليها حجة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما قبور الأنبياء: فالذي اتفق عليه العلماء هو قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فإن قبره منقول بالتواتر، وكذلك في صاحبيه، وأما قبر الخليل فأكثر الناس على أن هذا المكان المعروف هو قبره، وأنكر ذلك طائفة، وحكي الإنكار عن مالك، وأنه قال: ليس في الدنيا قبر نبي يعرف إلا قبر نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لكن جمهور الناس على أن هذا قبره ودلائل ذلك كثيرة، وكذلك هو عند أهل الكتاب. اهـ انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٤٤).

وقد جرى في عصور الانحراف أن أُنشئت قبور وأضرحة نُسبت إلى أنبياء أو أولياء، ليتخذها الناس مزارًا ومطافًا، فوقعوا في الغلو والبدع، وهذا من دسائس الشيطان لصرف الناس عن التوحيد الخالص، فواجب على الداعية أن يُبين هذه الحقائق للناس، وأن يردهم إلى التوحيد والسنّة الصافية، وأن يذكّرهم بأن شرف البقاع لا يكون بدعوى القبور فيها، بل بما قام فيها من طاعة الله، وذُكر فيها من علم وذكر وجهاد.

من المقامات المنسوبة إلى بعض الأولياء، ويتقربون إليها بالدعاء والذبح والنذور، وكل هذا من الشركيات أو من ذرائعها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

فهذه الممارسات تمثل صورة من الانحراف العقدي الذي حذر منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي عادة ما زالت تحتاج إلى الإنكار والتوعية، ولا سيما أن العوام يظنونها دينًا وقربة، بينما هي من البدع التي تُطفئ نور التوحيد وتغذي الخرافة.

وبعد ذكري لهذه المنكرات والبدع وقفت على مقال لكاتب في شبكة الانترنت ومقاله طويل في البدع التي تحصل في المسجد الأموي وما حوله ولا أدري هل لا تزال كلها موجودة أم بعضها؛ لأني لم أتحر في رحلتي تلك، وسأختصر مقاله في نقاط أبرزها ما يلي:

ضريح يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ (يوحنا المعمدان): وجود قبر في وسط المسجد وتعظيمه، وإظهار الستور والعمائم عنده، وإيقاد الشموع والنذور عليه.

جرن المعمودية: أثر نصراني قديم منسوب ليحيى، موضوع في قلب المسجد.

تعدد المحاريب (خمسة): منها أربعة في جدار القبلة والخامس في مشهد الحسين، وهو أمر لا نظير له في مساجد الإسلام.

مشهد الحسين ومحراب زين العابدين: مكان يتبرك به الناس ويجتمعون حوله.

جوقة المؤذنين: الأذان بصوت جماعي متتابع مع ألحان وزيادات، وهي بدعة مشهورة خاصة في رمضان.

باب هود وقبور منسوبة: منها ما يُقال: إنه قبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنها ما يُنسب لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي داخل المسجد وباتجاه القبلة.

قبة بيت المال في الصحن: وهي أثر دنيوي في داخل المسجد، مع أن المساجد مأمورة أن تُنزه عن التجارة والدنيا. (١)

(١) انظر المقال كاملا على هذا الرابط https://mohammadhabash.or

الفصل الحادي عشر:

شرح الرحلة الدعوية إلى مدينة دمشق

المبحث الأول: شوق الكاتب إلى الشام قبل الرحلة

منذ نعومة أظفاري، كان للشام في قلبي مكانة خاصة، فقد كنت أقرأ في كتب السيرة والفتوحات عن أخبارها، وأتأمل في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ التي خصّت هذه البقعة المباركة بالفضل والبركة، وكانت كلما مرّت عيني بذكر الشام، يتحرك في داخلي شوق خفي، ورغبة ملحّة أن أكون يومًا في جملة أولئك الذين تطأ أقدامهم تلك الأرض الطيبة، كم من مرة ناجيت نفسي: هل سيأتي اليوم الذي أزور فيه دمشق والغوطة وحمص وحماة، حيث مرّت قوافل الصحابة، وقامت معاقل العلم والجهاد؟! لكني كنت أراها أمنية بعيدة المنال، يصدّها حكم النصيرية بقيادة الطاغية بشار الأسد، ومع ذلك بقي الحلم حيًّا، إذ ليس على الله بعزيز.

المبحث الثاني: الدعاء لأهل الشام زمن المحنة

لقد عشت سنواتٍ طويلةً أتابع أخبار الشام زمن محنتها، حين تناثرت جثث الأبرياء تحت ركام بيوتهم، وصبّت الطائرات الروسية والبراميل المتفجرة حممها على الأطفال والنساء والشيوخ، وكنت أرى تلك الجرائم بعيني عبر ما ينقل في مقاطع الفيديو المنتشرة في مواقع التوصل الاجتماعي، وأشعر أن قلبي يتمزق بين ضلوعي، هناك، في سجداتي ودعواتي، كنت أخصّ أهل الشام بدموع حارة،

وأرفع أكفّي إلى الله أن يعجّل لهم بالفرج، وأن يفتحها لعباده الصالحين، وكنت أقول في نفسي: اللهم اجعل لي قدمًا في تلك الأرض يوم يكتب لها الفتح، لأكون من أوائل من يدخلها داعيًا إلى التوحيد، ناشرًا للعلم.

المبحث الثالث: حال الكاتب زمن اندلاع الحرب على الطاغية

ما زلت أذكر تلك الأيام العصيبة، حين دوّت أنباء اندلاع الحرب المباركة على الطاغية بشار الأسد، وكيف هبّت إدلب ومن إليهم وأبطالها يزحفون كالسيل الجارف صوب التحرير، كنت أتابع الأخبار لحظة بلحظة، أترقب البيانات والمشاهد، وأحبس أنفاسي مع كل خطوة يخطوها جنود الله الشجعان، وقلبي يسبقني إلى الشام، وعيني لا تفارق ما ينقل من أخبار في مواقع التواصل الاجتماعي، وما أراه من مقاطع لجنود الله الأبطال أثناء التقدم، ولساني لا ينفك بالدعاء في جوف الليل وفي كل وقت: اللهم عجّل بفرجك، اللهم انصر عبادك الموحّدين.

كنت في تلك الساعات المفعمة بالأمل أرى الانتصارات تلوح كلمح البصر، أرض تفتح، وثغور تتحرر، والرايات ترفرف عالية، ومع كل خبرٍ جديد يتضاعف يقيني أن سوريا بإذن الله تتهيأ لتكتب صفحة جديدة من تاريخها، صفحة بيضاء تُطوى بها سنون الظلم والدماء، وزادني ثقةً ما كنت أسمع عن قيادة الشيخ أبي محمد الجولاني- اسمه قديما وحديثا، وهو رئيس سوريا أحمد الشرع - الذي تولّى الراية في إدلب، فأدار المعركة بحزم وبأس، حتى صار حديث الناس في مشارق الأرض ومغاربها.

وما أن جاء اليوم الذي بلغني فيه خبر تحرير دمشق حتى لم أتمالك نفسي، خررتُ لله ساجدًا شاكرًا، وانفجرت دموعي تنهمر بحرارة، وكأنها تغسل همّ السنين وحُرقة الدعاء الطويل، وسجدت لله ثناءً وشكرًا، مردّدًا من أعماق قلبي: الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لقد كان ذلك الموقف لحظة فارقة في حياتي، أحسست فيها أنني ولدت من جديد، وأن الله أكرمني أن أعيش لأرى يومًا من أيامه التي يُعزّ فيها أولياءه ويذل فيها أعداءه.

المبحث الرابع: الرؤيا والبشارة في تلك الفترة وتعبيرها بدخول الشام

لقد شاء الله بفضله ومنّه أن يبشّرني قبل الرحلة بما يشرح الصدر ويقوي العزم؛ إذ رأيت في المنام – وذلك قبل سفري بنحو شهر – أنني أقبّل رأس رجل من أهل الشام، عُرف اليوم باسم أحمد الشرع، واشتهر قديمًا بلقب أبي محمد الجولاني، حامل راية التحرير، وقائد الفتح المبين لسوريا، الذي قاد جموع المجاهدين حتى صار في أعين الناس رمزًا للصمود والتضحية بتوفيق الله.

وقد ظللت بعد تلك الرؤيا في تفاؤل عجيب، أترقب ما تخبئه الأيام، وأجدّد الدعاء في كل صلاة، وأحسست أن الفرج أقرب لأدخل بلاد الشام –سوريا–.

فرموز الرؤيا تعبيرها ما يلي:

تقبيل الرأس: رمزٌ في المنام إلى الإقبال، وسأقبل على البلد، كما أن التقبيل تكريم، فكان معناه أنني سأُكرم بزيارة الشام.

كوني أقبل وليًّا للأمر –أحمد الشرع–: دلّ على أن الدعوة ستكون في ظل تمكين نسبي، وحماية من ولاة الأمر الجدد.

اسم الشرع: رمز ظاهر إلى أن مقصدي في هذه الأرض سيكون إقامة شرع الله، وبث العلم.

الاسم أحمد: يحمل إشارة إلى الحمد والشكر، وإلى بشارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي اسمه أحمد، وكأنها رسالة بأن الدعوة في الشام امتداد لهديه الشريف.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ**» قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**» رواه البخاري (٦٩٩٠) وعند ابن حبان (٦٠٤٥) وصححها شعيب الأرناؤوط «**إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ، أَوْ تُرَى لَهُ**»، فكانت هذه الرؤيا من المبشرات التي قوّت عزيمتي، وربطت قلبي بأرض الشام من فضل الله وحده لا بحولي ولا بقوتي.

المبحث الخامس: العزم على الدخول إلى سوريا وأجواء البقاء في جدة وفي المطار

لقد بدأت بشائر هذه الرحلة المباركة من بلادي اليمن وبالأخص في مقر إقامتي في سيئون، حيث كنت في أشهر الحج من عام ١٤٤٦هـ قد عقدت العزم على أداء الحج في تلك السنة، وكنت أقول في نفسي: إن تيسّر لي الحج فبها ونعمت، وإن لم يتيسّر فلعل الله أن يكرمني برحلة إلى أرض الشام، كان أملي بالله كبيرًا، لا تحده الظروف ولا تصده العراقيل.

وما أكثر ما كان يرد عليّ من أصوات المثبطين! فمن قائل: إن الأوضاع لا تزال

متوترة بعد التحرير، ومن محذّر: بأن العقوبات الدولية لم تُرفع بعد عن سوريا، وأن المعاملات في المطارات والإجراءات الرسمية المرتبطة بالسفر إلى دمشق لم تستتب بعد. وزاد الأمر ثقلًا أن جراثيم النظام النصيري ما تزال لها خلايا وأتباع هنا وهناك، وأن الاغتيالات تقع من حين لآخر، وكلها أمور سمعتها مرارًا، لكنها لم تزدني إلا عزمًا وإصرارًا، فقد أيقنت أن ما قدّره الله كائن، وأن السفر إلى الشام سيكون خطوة في سبيل الدعوة ونصرة الدين.

فانطلقت من مطار سيئون الدولي في حضرموت متوكلًا على الله، حتى وصلت إلى جدة، حيث أقمت عند إخوة كرام أكرموني غاية الإكرام، ولم أضيع الوقت هناك، بل اغتنمت تلك الأيام في مجالس نصح وتعليم، ولقاء بالشباب الصالحين، أذكّرهم بالله وأحدثهم عن الدعوة، وأرغبهم بالعلم وكان لقاءً مباركًا يتجدد كلما زرت جدة، إذ إن لي في السعودية إقامة رسمية تمكّنني من اللقاء المتكرر بإخواننا هناك كلما سافرت مكة.

وقد مكثت عندهم في هذه السفرة قرابة أسبوع، محاولًا الدخول إلى مكة لأداء الحج، لكن ضوابط مشددة حالت دون ذلك، إذ لم يتيسر لي أن أنيب عن أحد ولا أن أؤدي النسك.

وهنا توجه قلبي إلى الوجهة الأخرى -بلاد الشام- التي كنت أتطلع إليها منذ زمن: أرض الشام، وحملت همي إلى الله، وجعلت قصدي خالصًا له، وسرت بخطوات متوكل على الله، واستقر في قلبي خاطر جليل: أن أستبدل هذه الرحلة برحلةٍ أعظم أثرًا، هي رحلة الدعوة إلى الشام، فقويت عزيمتي، واستعنت بالله،

وشرعت أبحث عن طريق يوصلني إليها، وقصدت مكاتب السفر أفتش عن تذكرة، فكان الناس يتعجبون: أنت يمني تريد السفر إلى سوريا في هذا الوقت؟!، وكانت وجوههم مليئة بعلامات الاستفهام، لكنني كنت أحمل في صدري رسالة لا يثنيني عنها عائق، وفي المطار، حاولوا عرقلتي بالسؤال والتدقيق والبحث: لماذا تريد سوريا؟ ماذا معك؟

وبدت على وجوه الموظفين الدهشة والاستفهام: كيف لرجل ليس سوريًا أن يسافر إلى دمشق في مثل هذه الظروف؟ وماذا يريد هناك؟ ولماذا الشام بالذات؟ تساؤلات تلو التساؤلات، وكأنهم على وشك أن يمنعوني، ولكن الله لطف ويسّر وأجرى الأسباب حتى صعدت الطائرة بعد أن كادت الرحلة تفوتني، وبعد طول قلق وصبر صعدت الطائرة، ودموعي تختلط بضحكاتي من شدة الفرح، عبرت الأردن، ومنها انطلقت إلى دمشق، وأنا أستشعر أني على موعد مع قدرٍ كتبه الله منذ زمن بعيد.

المبحث السادس: أجواء المطار في دمشق والاستقبال الأول

ما إن وطئت قدماي أرض دمشق حتى غمرني شعور غامر بالسكينة، كأنني أعود إلى بيت قديم كنت أغشاه من قبل، استقبلني الموظفون بوجوه باسمة، وتعجبت من حرارة الترحيب بأهل اليمن على الخصوص، وكانوا يرددون: أهلًا باليمني، لقد دعا لنا ولكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشيرون إلى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، وَفِي يَمَنِنَا» رواه البخاري (١٠٣٧).

لقد رأيتُ في عيونهم مزيجًا من الأمل والحب، هنالك تذكرت أثر عبد الله بن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمتقدم في فضائل الشام أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال له: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ» رواه أبو داود (٢٤٨٣)، صحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

والله إني أتذكر لما هبطت الطائرة في مطار دمشق الدولي وكانت لحظةً أشبه بالخيال، شعرتُ فيها أن كل أحلامي ودموعي وأدعيتي لله قد صارت حقيقة بين يديّ، ودخلتُ المطار، فإذا بالوجوه السورية تتلألأ بالترحيب، وبعد أن أتممت إجراءات الدخول، ودفعت ما يسمونه بالفيزا، خرجت إلى أرض الشام أول مرة، وقلبي يكاد يقفز من بين أضلعي من شدة السرور.

هناك بدأت الرحلة الحقيقية، رحلة الدعوة إلى الله، وخرجت من المطار، فإذا بنسيم دمشق يلفح وجهي، يحمل في طياته عبق التاريخ وذكريات الفتح، وكان الهواء مختلفًا، فيه مهابة الأرض المباركة، وفيه حلاوة الدعاء المستجاب، وكأن نسمة منه تكفي لأن يزول عن القلب همّ سنين طويلة.

إن الطريق إلى دمشق ليس مجرد مسافة تُقطع، بل هو رحلة إيمانية تُذكّر القلب بعظمة الشام وفضائلها، كان الطريق في نظري منبرًا مفتوحًا للتفكر في آيات الله الكونية، ودليلًا على أن الشام بحق أرض مباركة، تجتمع فيها أسباب الجمال الطبيعي مع روعة الذكر التاريخي.

المبحث السابع: ذكر اللافتات والمدن-حماة، تدمر، درعا- أثناء السير إلى دمشق

وأنا أسير على الطريق المؤدي إلى دمشق، كانت اللافتات المرورية التي تعلو رؤوس المسافرين بمثابة رسائل ترحيب وبوابات تعريفية، تذكرك أن كل مدينة في هذه الأرض المباركة تحمل تاريخًا ومجدًا.

درعا: أول ما تقع عليه العين اسم درعا، تلك المدينة التي كانت منذ صدر الإسلام معبر الفاتحين، وبوابة الجنوب للشام، تقع على بُعد نحو مئة كيلومتر من دمشق، وكأنها الحارس الجنوبي لعاصمة الأمويين، درعا ارتبط اسمها في الأذهان بصلابة أهلها ووفائهم لدينهم، وهي المدينة التي عُرفت في العقود الأخيرة بمواقفها الصادعة، لكنها في الأصل أرض خصبة، تُزينها بساتين الزيتون والرمان، فتجمع بين جمال الطبيعة وبهاء التاريخ.

تدمر: ثم يطل عليك اسم تدمر، فتقفز إلى الذهن صور أعمدتها الشاهقة وآثارها التي صارت مرجعًا لكل باحث في التاريخ كانت في يوم من الأيام عاصمة لمملكة عربية نافست روما في عز سلطانها، تحت حكم الملكة زنوبيا، وفي ذكر تدمر عبرة بليغة: فها هي بقايا القصور والمسرح الضخم تشهد أن الحضارات مهما علت لا تدوم إلا ما شاء الله، وأن الملك لله وحده.

حماة: وإذا مرّرت ببصرك نحو اللافتة التي كُتب عليها حماة، أحسست برنين في قلبك، فهذه المدينة من أعرق مدن الشام، وعُرفت بنواعيرها العتيقة التي تدور على نهر العاصي منذ مئات السنين، ولحماة تاريخٌ طويل في العلم والجهاد، فقد

خرج منها علماء ومجاهدون تركوا بصماتهم في التاريخ الإسلامي.

مدن أخرى: وبين اللافتة والأخرى، تتوالى أسماء مدن كحمص وإدلب وحلب، وكلها مدن لها ذكر في التاريخ الإسلامي، ومقامات في قلوب المسلمين، غير أن اللافتات لم تكن مجرد دلائل سفر، بل كانت كأنها إشارات توقظ في النفس شعورًا بأنك تسير في أرض باركها الله بذكرها في النصوص، وسقاها بدماء الشهداء، وشرّفها بفتوحات الصحابة.

وهكذا كان الطريق إلى دمشق رحلة في كتاب مفتوح، كل مدينة فيه صفحة ناطقة، وكل لافتة علامة على مجد خالد.

المبحث الثامن: وصف تصويري للأرض والأجواء

ما إن بدأت الطائرة بالهبوط في أجواء الشام حتى انكشفت لي لوحة ربانية بديعة، تتراءى فيها الأرض وقد ارتدت ثوبًا أخضر قشيبًا، تتناثر فيه البساتين، وتتخلله أشجار باسقة تعانق السماء، وعن يميني وعن شمالي بدت السهول كأنها بساط من سندس نُسج بخيوط النور.

وعند خروجي من المطار صوب دمشق ونحن نسير بالسيارة كانت الخضرة تملأ السهول والوديان، تتخللها طرق ضيقة كخيوط مرسومة بعناية، والهواء الذي يهب من كل صوب بارد خفيف لطيف، منعش، يُشعرك بالراحة والصحة حين تستنشقه يملأ النفس راحة، ويشعرك أنك تتنفس صحة ونقاء.

وأنت تنظر من حولك ترى الجمال البسيط المترامي: أشجار باسقة تتمايل مع النسيم، وبساتين كثيرة وعالية وكثيفة الظلال، والجبال في الأفق شامخة كأنها

حراس على تخوم الأرض.

وكلما تنفست شعرت بعبق خاص لا تجده في غيرها؛ عبق يحمل أنفاس الطبيعة النقية، ممزوجًا بهدوء الأرض وسكونها، مشهد لا يحتاج إلى كثير وصف، فهو كافٍ لأن يجعل القلب يخفق بالشكر، والعين تدمع من البهجة.

المبحث التاسع: الناس على جانبي الطريق

ولم يكن المشهد مقتصرًا على الطبيعة، بل كان للناس حضور بارز، فترى الفلاحين منهمكين في حراثة الأرض، يحملون في وجوههم أثر الجد والتعب، ومع ذلك يلوحون للمسافرين بابتسامة صادقة، وترى الباعة يفترشون جوانب الطريق بثمارهم وخيراتهم: رمان، وتين، وتفاح...، وكأنهم يعرضون لك زينة الشام في طبق من ودّ.

أما الأطفال، فيركضون على أطراف القرى، يرفعون أيديهم بالتحية للسيارات العابرة، في مشهد يرسم البراءة على الطريق.

وهكذا، كان الطريق إلى دمشق ليس مجرد انتقال جسدي، بل كان رحلة روحية، فالجبال تعلمك الثبات، والأرض تذكرك بالجد والعمل، والناس البسطاء يذكرونك بأن الخير في هذه الأمة باقٍ ما بقيت السماوات والأرض.

المبحث العاشر: الانطلاق إلى المساجد والدروس الأولى

ما إن استقرّت بي الحال في دمشق في السكن – فندق – حتى كان همّي الأول أن ألحق بركب الدعوة، فقد جئت من أرض بعيدة، لا لطلب دنيا ولا تجارة، وإنما لأقيم ذكر الله، وأبثّ روح التوحيد بين العباد.

وكانت البداية بعد صلاة المغرب في أحد المساجد، حيث قدّمني إمام المسجد لألقي كلمة، صعدتُ، وأمسكت بالميكرفون، ثم بدأت موعظتي عن الموت، وأنه لا يُختم بخير إلا لمن عاش على التوحيد والعقيدة السليمة، وحذرت من خطورة الشرك والبدع وما يجرّان من سوء الخاتمة.

كنت أرتل الآيات، فلفت ذلك انتباه الحاضرين، وأخذت أنظر إليهم فإذا بهم على رؤوسهم الطير، كأن الأنفاس قد حُبست من شدة الإصغاء، ثم لم ألبث أن رأيت الدموع تسبل من أعينهم، كان المشهد مؤثرًا إلى حد أنني شعرت أن الله قد بعث في قلوبهم حياة جديدة بتلك الكلمات التي من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وما إن أنهيت الموعظة حتى أقبل الناس عليّ، يزاحمونني عند باب المسجد، يصافحونني ويقبّلونني، ويقولون: جزاك الله خيرًا يا شيخ، نحن محرومون من مثل هذه الكلمات، والله نحن بحاجة إلى هذا النصح والتذكير، لقد كان زحامهم شديدًا حتى عجزت أن أخرج من بينهم بسهولة، وكل واحد يطلب مزيدًا من الزيارات، ويؤكد أن القلوب عطشى لذكر الله الخالص من شوائب البدع والخرافات.

والله لقد أبكتني تلك اللحظات، حين رأيت حرارة الاستجابة، وصدق التأثر،

وعلمت يقينًا أن هذه الأمة مهما غطتها غيوم البدع، فإن نور الفطرة لا يخبو، وأن الكلمة الصادقة من الكتاب والسنة كفيلة أن توقظ القلوب الميتة، بإذن الله تعالى.

المبحث الحادي عشر: رقة الناس وتأثرهم بدعوة التوحيد والنصح

من أعظم ما شدّ انتباهي في دمشق أن الناس – على بساطتهم وقلة علمهم – قلوبهم رقيقة، وفطرتهم صافية، وأرواحهم متعطشة لكلمة الحق، فقد طال عليهم الأمد تحت سلطان النصيرية والمُطبلين لهم من الصوفية بما فيها من أوراد مبتدعة وطقوس جماعية، حتى ملّوا تلك التكرارات الميتة التي لا تجد لها أثرًا في القلب ولا في السلوك، فإذا سمعوا كلمة من كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أحسّوا كأنهم يشربون ماءً باردًا بعد ظمأ طويل، فيخشع سمعهم، وتدمع أعينهم، وتلين قلوبهم.

ولم يكن هذا التأثر محصورًا في المساجد فحسب، بل وجدته في كل مكان دخلته، فما إن أزور مسجدًا وألقي كلمة يسيرة إلا ورأيت الحاضرين يحيطون بي بلهفة، يطلبون المزيد من الوعظ، ويشكون حرمانهم من مثل هذه الكلمات الصافية، وإذا جلست في مجلس عابر أو دخلت محلًا للشراء وجدت الفرصة سانحة لأبث كلمة في التوحيد أو نصيحة في المعاملة، فما أذكر مرة أنني نصحت أحدًا إلا ورأيت من وجهه القبول والشكر، وإن لم يعمل بها في الحال، حتى من كنت أعلم أن بعضهم حال النصيحة أنه غير مقتنع، أو أنه لن يترك ما هو عليه من معصية أو بدعة، مع ذلك يشكرني بأدب، ولا يقابل كلامي بعبوس ولا جفاء، وهذا خُلُق يُحمدون عليه.

لقد كان المشهد متكررًا في كل موضع: في المسجد بعد الصلاة، في السوق وأنا أشتري، في الطريق حين يسير بجانبي أحدهم، بل حتى في المواصلات حين يفتح الله مجالًا للكلمة، لم أجد منهم استهزاءً ولا تضجرًا، بل ترحيبًا وحفاوة وعبارات صادقة: جزاك الله خيرًا، نحن والله بحاجة إلى مثل هذا النصح، ذكرتنا بما نسينا، أسأل الله أن يبارك فيك.

وكنت كلما رأيت هذه الاستجابة أتذكر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، إنهم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وإن غطتها غيوم البدع والخرافات، فإن نور الفطرة لم ينطفئ، فما إن يطرق سمعهم صوت القرآن أو حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى تتحرك القلوب، وتبكي العيون، وتلين النفوس.

وهذا مما زاد يقيني أن الناس – مهما ابتعدوا – فإنهم ينتظرون الكلمة الصادقة، فإذا خرجت من قلب عامر بالإيمان، وقعت في قلوبهم موقع الغيث على الأرض الميتة، وأثمرت استجابة عاجلة أو وعدًا صادقًا بالعمل، بل ربما كانت دمعة من عين رجل بسيط أو ابتسامة شكر من منصوح في الطريق أبلغ عندي من خطبة مطولة، إذ هي دليل على حياة الفطرة وبقاء الأمل.

لقد ملّ الناس الصوفية وطقوسهم، وملّوا البدع التي لم تجلب لهم إلا القسوة والفراغ، فإذا جاءهم من يذكّرهم بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو بآية من كتاب الله، أقبلوا عليه بشوق، وشكروه بصدق، وهذا والله من أعظم المبشرات، أن الأمة لا تزال تحمل في قلبها الاستعداد للرجوع إلى الحق متى ما

وجدت من يطرق بابها بالرفق والصدق.

المبحث الثاني عشر: قصة الشاب الذي كاد أن يكون نصرانيًا

مما واجهني في بلاد دمشق، وكان له أثر بالغ في نفسي، قصة شاب التقيت به في بداية رحلتي الدعوية، إذ عرض بعض الإخوة أن يكون رفيقًا لي، يعينني في التنقل بين المساجد، ويعرفني على الطرقات والأحياء، وهذا الشاب – ويا للعجب – كان متهاونًا بالصلاة، غافلًا عنها، لا يلقي لها بالًا، بل ربما مرّت الأيام دون أن يركع لله ركعة، ومع ذلك، لم أيأس منه، فكنت أحرص على نصحه كلما سنحت الفرصة، وأدعوه برفق ولين، وأحثه على المحافظة على الصلاة، وأبين له أنها عمود الدين، وأن من ضيعها فقد ضيع دينه.

ومع مرور الأيام، بدأ أثر النصح يظهر ثمره بفضل الله وحده، وصار يتردد إلى المسجد معي، ثم ما لبث أن اعتاد الصلاة، ورأيت منه انضباطًا لم أعهده من قبل، وكان يراقبني بدقة، وأنا لم أكن أعلم ما الذي يدور في خلده، وكان يراقب مجالسي ومواعظي، ويرى عفويتي في الحديث ومزاحي الصادق الخالي من الكذب، ويرى محافظتي على الصلاة في وقتها، واهتمامي بالدعوة، وانشغالي بالقراءة والمطالعة، وسماحتي في البيع والشراء، وتعاملاتي مع الناس بالرفق والابتسامة.

أيقنت أن الداعية لا يبلغ قلوب الناس بكثرة علمه فحسب، وإنما بأخلاقه وسلوكه قبل كلماته، فقد صار هذا الشاب يقتدي بي من حيث لا أشعر، وبدأ يطيل لحيته شيئًا فشيئًا، وحرص أن يلبس الثوب كما ألبسه، وتأثرت ملامحه بملامح الخشوع، وصار يقرأ القرآن ويستمع له باهتمام، كأن بذرة الاستقامة قد

نبتت في قلبه، ثم أخذت تزهر يومًا بعد يوم.

وبعد مضي قرابة عشرين يومًا من صحبته لي، جاءني في يوم من الأيام يريد أن يجلس معي على انفراد، وكان وجهه متغيرًا، وصوته جادًا، وعيناه تحملان سرًا يريد أن يبوح به، وجلسنا ففاجأني بقوله: يا شيخ، أريد أن أصارحك بأمر خطير جدًّا. قبل أن أتعرف عليك بأسبوع واحد فقط، كنت على وشك أن أترك الإسلام وأدخل في النصرانية!.

تزلزل قلبي حين سمعت كلماته، وقلت له بدهشة: ولماذا يا فلان؟!، فأخذ يروي لي قصته التي كانت كالسهم في صدري، قال: كنت أنظر إلى واقع المسلمين من حولي، فأرى طوائف وجماعات، كل واحدة تذبح الأخرى، ورأيت داعش والقاعدة وهم يقتلون المسلمين، ويذبحون الرجال والنساء بلا رحمة، حتى إنني شاهدت بعيني رجلًا وامرأة ذبحوهما أمام الناس، فقلت: أهذا هو الإسلام؟ هذا دين الوحشية؟ ثم كنت أرى الصوفية وما عندهم من بدع وخرافات، فقلت: أهذا هو الدين؟ وكنت أنظر إلى الأحزاب وتناحرهم وصراعاتهم، فقلت: أين الرحمة وأين الهداية، وجمع الكلمة والتوحد والاعتصام والأُخوة؟

وأضاف قائلًا: لقد كرهت الإسلام حتى بلغت مرحلة قلت فيها: هذا دين لا يصلح، ثم رأيت النصارى، وكيف يحسنون المعاملة في البيع والشراء، ويظهرون الصدق والأمانة في المعاشرات، فأحببتهم، وكدت أميل إليهم، حتى لم يبق إلا أيام قلائل وأعلن ردتي عن الإسلام ولحوقي بالمسيحية؟!

ثم نظر إلي بعين دامعة وقال: لكن لما جالستك، قررت أن أختبرك، وأنظر:

أأنت كغيرك، أم أنك مختلف؟ كنت أراقبك في كل شيء، في كلامك، في صلاتك، في أخلاقك، في بيعك وشرائك، في نصحك للناس، في بشرك وابتسامتك، فوجدتك على حال لم أرها من قبل، وجدت الصدق والرفق، وجدت التواضع والرحمة، وجدت القرآن والسنة، لا خرافات ولا دماء ولا تعصب(١) عندها علمت أن هذا هو الإسلام الحق، وأن من يسير على منهجك هم على الطريق المستقيم، فوالله يا شيخ، لقد أنقذني الله بك من الردة، وأحببت منهج السلفيين، وعاهدت الله أن لا أتركه، بل أن أطلب العلم وأتفقه في ديني.

حين سمعت ذلك، اغرورقت عيناي بالدموع، وحمدت الله أن جعلني سببًا في هدايته، وعلمت أن الأمر كله من فضل الله وحده، فذكرت له أن ما فعله أولئك الخوارج من القتل والذبح لا يمت للإسلام بصلة، وأن العلماء قد حذروا منهم قديمًا وحديثًا، وبيّنت له أن الصوفية والبدع طريق الضلال، وأن الإسلام دين الرحمة والهداية، وأخبرته أنني قد ألّفت كتابًا في التحذير من فكر التفجير والتكفير، بعنوان إعلان النكير على جماعة التفجير والتكفير، وأنني أصدرت خطبًا ومحاضرات كثيرة في ذلك، نشرت على مواقع الشبكة، ليعلم أن الحق واضح وأن الحجة قائمة.

خرجت من هذه الجلسة وأنا أحمد الله أن نجّى شابًا كان قاب قوسين أو أدنى

---

(١) أنا أنقل ما قاله وهذا هو حسن ظن منه، وإلا والله أنا أعلم بنفسي أني مقصر، وإنما هو ستر الله عليَّ.

من الردة، فإذا به يعود ليكون جنديًا في صف التوحيد، طالبًا للعلم، محبًا للسنة، إنها عظة بالغة: إن الكلمة الطيبة، والسلوك الحسن، والرفق في الدعوة، قد تكون حائلًا بين المرء والردة عن دين الله.

المبحث الثالث عشر: رحلتي الدعوية إلى منطقة القطيفة المجاورة لدمشق(١)

من المناطق التي شملتها رحلتي الدعوية في بلاد الشام منطقة القطيفة، وهي بلدة واسعة عامرة بالمساجد، لكنها للأسف يغلب على أكثر مساجدها الطابع الأشعري الصوفي، وقليلٌ فيها من يعرف حقيقة منهج السلف الصالح. وقد رُتِّب لي عن طريق وزارة الأوقاف أن ألقي فيها محاضرات وكلمات توجيهية بعد صلاة المغرب في مسجد، وبعد العشاء في آخر، فكانت لي زيارات متكررة إلى تلك البلدة، وكلما دخلت مسجدًا وجدت الترحيب الحارّ من العوام، والفرح الغامر بسماع الوعظ والتعليم، إذ لمسوا أسلوبًا جديدًا لم يعتادوه، أسلوبًا يجمع بين رقة الموعظة وقوة الدليل، وبين الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فكانوا بعد كل محاضرة يقتربون يصافحونني ويعبرون عن إعجابهم، ويرجون أن أستمر بينهم، فلبّيت طلبهم وعدت إليهم مرات متتابعة، فوجدت القلوب أكثر

(١) وتبعد مدينة القطيفة عن دمشق قرابة (٤٠) كيلومترًا إلى الشمال الشرقي، وتقع على الطريق الدولي بين دمشق وحمص.

استعدادًا، والنفوس ألين قبولًا.

ومن المواقف العجيبة أني ألقيت كلمة في أحد المساجد، فلما انتهيت دعاني القائمون على المسجد إلى الجلوس في مكتبهم لنشرب قهوة، وكانوا من الصوفية، لكنهم لا يعرفون بكثرة حقيقة المنهج السلفي، وجلسنا نتحدث عن العلم والدعوة، فقال أحدهم: أنتم -يا سلفيون- عندكم نشاط دعوي حيّ، وحركة في التعليم والوعظ، أما نحن فحصرنا أنفسنا في تعليم التجويد والقراءة فقط، وهذا اعتراف بالحق.

فقلت له: الدعوة إلى الله واجب الجميع، وما وُضع العلم إلا ليُعلَّم ويُعمل به، فكانت تلك شهادة من خصمٍ أدرك أن الحق لا يُحجب بنسب ولا باسم، ومن المواقف التي لا تُنسى أيضًا، أني بعد إحدى المحاضرات اقترب مني رجل عليه سمتٌ حسن، بثوبٍ قصير ولحيةٍ، صافحني بحرارة وقال: أنا سوريا من أهل هذه المنطقة، وأنا سلفي، وقد كنت زمن النظام في ليبيا، ثم جئت إلى سوريا بعد سقوط النظام، فلما سمعت المحاضرة علمت أنك من أهل السنة، وأن أسلوبك أسلوب السلفيين ففرحت فرحًا عظيمًا، وتعرّفت عليه، وإذا هو من طلاب العلم الذين عُرفوا في ليبيا بحبهم للسلفية، وأبدى حزنه لقلّة من يمثل هذا المنهج السلفي في القطيفة، وقال: أشعر بالغربة، فلا مساجد لأهل السنة السلفيين هنا، لكن الحمد لله الذي جمعني بكم، ومن يومها كان لا يتخلف عن أي لقاء، في تلك المساجد جزاه الله خيرًا.

وكان من بركات تلك الزيارة أن كثيرًا من شباب الصوفية أنفسهم بدؤوا

يتأثرون، ويطلبون مزيدًا من اللقاءات، وبعضهم صرّح أنه لم يسمع بمثل هذا البيان من قبل، وأنه وجد راحةً في حديث العقيدة والتوحيد، فالحمد لله الذي يفتح القلوب للحق ولو بعد طول زمن.

موقف في عزاء عامٍ بالقطيفة

وفي ليلةٍ من الليالي بعد إلقاء كلمة بعد صلاة العشاء، وبعد خروجنا من المسجد، دعاني بعض الناس ممن حضر لي عند إلقاء المحاضرة في ذاك المسجد إلى حضور مخيم عزاء كبير، يجتمع فيه الناس من مختلف المناطق، وقال: إن حضور أمثالك هناك يكون مؤثرًا، فذهبت معهم، وكان المجلس واسعًا، مكتظًا بالناس من كل طبقة: مسؤولون، وأطباء، ووجهاء، وكان في الجمع بعض الصوفية، فلما رآني أحدهم تغيّر وجهه، وألقى كلمةً مليئة بالبدع والألفاظ الغريبة، ثم انصرف دون أن يصافحني، وعلم الناس أنه صوفي متعصّب.

ثم أعطوني الميكروفون، فتكلمت وألقيت موعظة عن حسن الخاتمة، والاستعداد للقاء الله، ذكّرتهم بأن الموت ليس نهاية المطاف، بل بداية رحلةٍ أبدية، وأن القضية الكبرى ليست أن نموت، ولكن على أي شيء نموت، وركزت في حديثي على التوحيد والعمل الصالح، وأنه لا نجاة إلا بهما، وأن الإنسان ينبغي أن يتهيأ للقاء ربه بقلب سليم وعمل صالح، وحذّرت من الشركيات والمعاصي التي تفسد الخاتمة.

فما إن انتهيت حتى أقبل الناس عليّ يعانقونني، ويثنون على الكلمة، ويقولون: هذه الموعظة أنارت لنا الطريق، أما الصوفي الذي كان قبلي فقد غادر مغضبًا،

والناس –بحمد الله– ميّزوا الحق من الباطل في الكلام.

وهكذا كانت زيارتي إلى القطيفة مليئة بالثمرات الدعوية، والتأثير العميق في النفوس، والفضل لله وحده.

المبحث الرابع عشر: إشراقة الدعوة في منطقة الدحاديل:

ومن المناطق التي أَنِستُ بها غاية الأُنس، وأحسستُ فيها بصفاء القلوب وحب الخير، منطقةٌ في دمشق تُعرف باسم الدحاديل، تبعد عن وسط المدينة قرابة ١٢ كيلومترًا جنوبًا تقريبًا(١)، وهي منطقة يغلب على سكانها عشائر من دير الزور، عُرفت بين الناس بالكرم، وحب الخير، والأنس بالعلم والدعوة.

وما إن تدخل الدحاديل حتى تشعر بأنك دخلت بيئةً يغمرها الحياء والعفة؛ فكثيرٌ من النساء فيها بالحجاب الشرعي الكامل، والرجال يرتدون الأثواب البيضاء (القمص)، وتكاد ترى الطابع السني واضحًا على ملامحهم وسلوكهم، رغم الظروف الصعبة التي تمرّ بها البلاد، فكانت هذه المنطقة من أحبّ الأماكن إلى نفسي، وكنت أزورها مرارًا وتكرارًا، لما وجدته فيها من صفاء القلوب، ورغبةٍ صادقةٍ في سماع المواعظ والانتفاع بها.

وكانت الدحاديل من أوائل المناطق التي بدأت فيها الدعوة قبل حصول

---

(١) الدحاديل: تقع في الجهة الجنوبية من دمشق، وتُعد من أحياء الريف القريبة، وتربط العاصمة بالمدن المحيطة، كصحنايا وداريا ودير العصافير.

الترخيص الرسمي من وزارة الأوقاف، إذ ألقيتُ فيها أول محاضرة، فكان صداها واسعًا، وتأثيرها ظاهرًا، حتى شاع بين الناس ذكرها، لما فيها من صدقٍ وقبولٍ وتفاعلٍ من أهلها، سيما أن أهل دير الزور مشهورون بحبهم للعلم والعلماء، وحرصهم على الوعظ والتذكير، فكان الانسجام بينهم وبيني عجيبًا، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنين.

وما إن انتهيت من أول كلمة ألقيتها في مسجدهم، إلا وأقبل الناس يصافحونني بلهفةٍ وفرحٍ صادق، وبعضهم يعانقني باكياً، قائلين: يا شيخ، والله لقد أحييت فينا روح الدعوة، فطلبوا مزيدًا من الزيارات والمحاضرات، وفعلاً تكررت زياراتي لهم، وكان لهم النصيب الأوفر من الترتيب والتنظيم.

ومن خيرة من تعرفت عليهم هناك الأخ الفاضل عبد العزيز أبو عمر، وهو من أهل السنة، محبٌّ للعلم، صادق الغيرة على الدعوة، نشيط في خدمة منهج أهل السنة والجماعة، وله عنايةٌ بتعليم القرآن وبعض دروس العقيدة، كما أنه متابعٌ لكتبي ونتاجي العلمي، حريص على النصح، دائم التواصل، يتمنى مرافقتي في طلب العلم، فجزاه الله خيرًا.

وكان أبو عمر ينسق لي المحاضرات في المساجد، ويطبع الإعلانات، ويبلغ الشباب بها، فكان المسجد يمتلئ بهم بلهفةٍ ومحبة، وذكر لي ذات مرة أن كثيرًا من الشباب في تلك المنطقة كانوا لا يحافظون على صلاة الجماعة قبل مجيئي، فلما سمعوا المواعظ وانتظموا في حضورها، صاروا من أكثر الناس حرصًا على الجماعة.

وقد كانت محاضراتي في الدحاديل تترك أثرًا عميقًا، وتُشعل في القلوب روح الدعوة من جديد، وقد هيأ الله فيها القبول، فالحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، ولا أنسى في ختام الحديث أن أُوجّه شكري العميق لأحبتنا في الدحاديل، على محبتهم للخير وحسن استقبالهم وصدقهم في التفاعل مع الدعوة، وأخصُّ بالشكر الأخ عبد العزيز، وكل القائمين على مسجد أويس القرني، ورواده من شبابٍ وكبارٍ، الذين رتبوا لي دروسًا متتابعة فيه، لكن الرحيل حال دون إتمامها، ولعلها تُستأنف في زيارةٍ قادمةٍ بإذن الله تعالى.

المبحث الخامس عشر: الدعوية في سجون دمشق، وأبرز المشاهدات:

ولما تعرف عليَّ بعضُ رجالِ الدولةِ ممّن رأى أثر الدعوة ووسطيتها، وممّن يسّر الله بهم أمر الترخيص لي في وزارة الأوقاف، عرض عليَّ أحدهم – جزاه الله خيرًا – أن تكون لي زيارات دعوية إلى السجون، أُلقي فيها المواعظ والنصائح على المسجونين، وأُذكّرهم بالله، وأبعث في نفوسهم الأمل والتوبة والرجوع إلى الطريق المستقيم، فكان ذلك من أجمل ما كتب الله لي في رحلتي الدعوية إلى دمشق.

المشهد الأول: دخولٌ خلف الأسوار:

حين فُتح لي باب السجن، شعرت كأنني أُدخل إلى عالم آخر يختلف عن الدنيا التي في الخارج، دخلت فإذا بي أرى وجوهًا يعلوها التعب والهمّ، عيونًا حائرة، وأجسادًا أنهكتها المحن، بعضهم مطرق الرأس واجمًا، وبعضهم يتطلع إليّ بفضول، كأنه يسأل: من هذا القادم؟ وماذا سيقول لنا؟ تقدمت وجلست في

وسطهم بلا حواجز ولا تكلف، ألقي السلام وأصافحهم واحدًا واحدًا، أرسم ابتسامةً أبدد بها وحشة المكان، وأبث شيئًا من الطمأنينة في القلوب.

المشهد الثاني: التعارف وكشف الجرائم

أردت أن أكسر الحاجز النفسي بينهم وبيني، فبدأت بمجازحتهم وسؤالهم عن أسمائهم، حتى إذا ألفوا جلوسي سألتهم عن قضاياهم، وهنا بدأت المفاجآت تتوالى، فهذا وقع في الزنا، وآخر قضيته شرب الخمر، وثالث اعترف بالسرقة، ورابع قضيته طعن أو ضرب، وآخرون تورطوا في قضايا مالية أو مغازلات محرمة، وكنت أرى الحياء يكسو وجوه بعضهم، فيترددون عن ذكر جرائمهم، لكن رفقاءهم يبوحون بها، فأشفق على حالهم، وبينهم رجل أطلقوا عليه أنه مجاهد، فعلمت أنه قد يكون من المخدوعين بتنظيم القاعدة أو أمثالهم، كل ذلك أعطاني صورة كاملة عن واقع هؤلاء المسجونين، فتهيأت نفسي لتقديم ما يحتاجونه من النصح والتوجيه.

المشهد الثالث: أول موعظة الأمل في قلب الظلمة

لم أبدأ بتقريعهم ولا بذكر العقوبات، بل اخترت أن أفتح لهم نافذة أمل، فقلت لهم: يا إخواني، الفرج قريب، والرحمة واسعة، وما أنزل الله كربًا إلا ومعه الفرج، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦].

قصصت عليهم قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السجن، وكيف جعل الله عاقبته خيرًا ونصرًا، وذكرت لهم أن السجن قد يكون سببًا لصرف شرّ أعظم عنهم، وأنه تذكير ورحمة ليعودوا إلى الله، وكنت أتكلم وهم كأن على رؤوسهم الطير،

بعضهم يمسح دموعه، وبعضهم يردد: الله أكبر، وحين انتهيت قالوا: بالله عليك زدنا، فاستشعرت عظم المسؤولية.

المشهد الرابع: دروس في القضاء والقدر

في اليوم التالي بدأت حديثي عن الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وذكرت لهم أن المظلوم منصور لا محالة، وأن البلاء طريق للرفعة والتكفير، هذا الكلام كان بلسمًا لجراح كثير منهم، إذ أخبرني بعضهم أنه مظلوم في قضيته، فقلت له: إن الله يمهل ولا يهمل، وإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

المشهد الخامس: أول ما بدأت به معهم الصلاة

حين جلست بينهم، سألتهم عن صلاتهم، فإذا بكثير منهم لا يعرف كيف يصلي أصلًا، ولا كيف يتوضأ! والله رأيت شابًا لا يحسن الركوع ولا السجود، بل لم يصلِّ منذ سنوات، وهنا شعرت أن أعظم واجب هو تعليمهم الصلاة.

فقمت أمامهم، وتوضأت عمليًا، وشرحت لهم خطوات الوضوء، ثم صليت به ركعة، أركع فيركع مثلي، أسجد فيسجد مثلي، أردد سبحان ربي العظيم، فيردد ورائي كالأطفال الذين يتعلمون أول مرة. والله كان مشهدًا يهز القلب، ترى رجالًا كبارًا يتعلمون أبسط أركان الدين، لكنهم فرحوا بذلك فرحًا عظيمًا، كأنهم وُلدوا من جديد.

المشهد السادس: إشعال السجن بالعلم

تحول السجن إلى حلقة علم من فضل الله، فأسئلة عن الطهارة والصلاة، واستفسارات عن الزكاة والصيام، ونقاشات عن العقيدة وأصول الإيمان، وكنت أعطيهم أحاديث نبوية أحفظها، ثم أشرحها وأستخرج الفوائد منها، وعلّمتهم فضائل الأعمال: الصلاة، الصيام، قيام الليل، بر الوالدين، صاروا يحيطون بي من كل جانب، والفرح يطفح على وجوههم، يدوّن بعضهم برقم هاتفي في ذاكرته لأنه لا يملك ورقة أو قلم.

المشهد السابع: تعليم القرآن

بدأت ألقنهم سورًا من القرآن، أعلّمهم النطق الصحيح، وبعضهم كان لا يعرف الفاتحة! لكنهم تعلّموها، وحفظوا سورًا قصيرة، وكانوا يرددونها بلهفة، حتى غدت ألسنتهم رطبة بذكر الله من فضل الله، فحمدت الله أن جمعني بهم في هذا المقام.

المشهد الثامن: السترة والزحام عليها

من الطرائف العجيبة أنني علمتهم سنة الصلاة إلى سترة، فقلت لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُصَلِّ إِلَى سُتْرَةٍ، وَلْيَدْنُ مِنْهَا**» فصاروا يتزاحمون على قنينة ماء صغيرة بطول ذراع يجعلونها سترة، يتنافسون عليها وكأنها غنيمة! منظر يبعث على السرور، ويبين كيف أن السنة إذا أُحييت في قلوب الناس تحولت إلى شغف وحرص.

المشهد التاسع: قيام الليل والصيام

ذكرت لهم فضل قيام الليل، وكيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحبه

كانوا يستفتحون ليلهم بدموع وخشوع، فوالله لقد أخبروني أنهم بدأوا يقومون الليل في زنازينهم، ويصومون النهار تطوعًا، وكانوا يعيشون روحًا جديدة، حتى شعرت أن السجن تحول إلى مدرسة إيمانية.

موقفٌ طريف في السجن: انكشاف حال الصوفي

ومن أطرف المواقف التي شهدتُها في تلك الزيارات الدعوية إلى أحد سجون دمشق ما كان من ثمرات دروسي عن التمسك بالسنة ومنهج السلف، فقد كنتُ أُكثر على الإخوة المسجونين من الحث على لزوم الكتاب والسنة، وبيان أن التحزّب في الدين بدعة محدثة تفرّق الأمة وتضعف صفها، وكنتُ أتحاشى ذكر الأسماء والطوائف درءًا للفتنة، غير أن بعض الإخوة ألحّوا عليّ في السؤال عن الصوفية، فأجبتهم جوابًا عامًا فقلت: من رأيتم عنده بدع كالمولد، والرقص في المساجد، والذكر الجماعي، وترك العلم الشرعي، والعقيدة الصحيحة، فاعلموا أنه على غير منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

فعرفوا ما أقصد، فكان في اليوم التالي أن أُدخل إلى السجن رجل من الصوفية الأشاعرة في قضية ما، فبادره الإخوة يسألونه: أأنت صوفي؟ قال: نعم، نحن الطائفة المنصورة، وأهل الحق في كل زمان! فقلت له بهدوء: أسألك سؤالًا، هل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ صوفيًا؟ فتلعثم ولم يجب، فصاح به السجناء: أجب على السؤال!، فأبى، فقلت: إذن أنتم طائفة محدثة، ليست من الإسلام في شيء.

فازداد غيظه وأخذ يغالط ويتطاول على أهل السنة، فقام بعض السجناء

يريدون الاعتداء عليه، فحاولت تهدئتهم، لكنه تمادى، فقلت له: هل الرقص في المساجد فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ فقال متذاكيًا: نعم، عندنا الدليل في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١]، فوثب أحد السجناء وكان من أشدهم نفورًا من الصوفية فأخذه من ثيابه وطرحه أرضًا وهو يقول: هذا قدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يا مبتدع!، فاشتعل المكان ضجيجًا وضحكًا، ثم سُحب الرجل وهو مبهوت لا يدري ما يقول.

ومن العجيب أن رجال الأمن الذين كانوا يراقبون الموقف لم يعترضوا، بل قال أحدهم: هذا صوفي متعب، أتعبنا منذ أن دخل السجن وأثناء التحقيق!، فعلمت أن الله أراد بهذا الحدث أن يُظهر بركة منهج أهل السنة، إذ رأيت المسجونين -على اختلاف قضاياهم- صاروا قلبًا واحدًا يقولون: الحمد لله الذي بيّن لنا الحق وهدانا لمنهج السلف الصالح.

المشهد العاشر: تأويل الرؤى وبث الأمل في قلوب المسجونين

ومن المشاهد المؤثرة التي لا تُنسى في تلك الزيارة الدعوية إلى بعض سجون دمشق، أن بعض السجناء لما علموا أني أُعنى بتعبير الرؤى وتأويل الأحلام، أقبلوا عليّ فرحين يسألونني عن رؤاهم، كلٌّ يحدثني بما رأى، وكان الكثير منهم يتشوق في قص رؤياه لعله يجد في تفسير المنام ما يطمئنه ويُذهب عنه كربه، فرأيت أن هذا الباب من الدعوة باب عظيم النفع، فاستغللته من فضل الله، كما فعل نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين جعل من تعبير الرؤى وسيلةً للدعوة والإصلاح، كما قال تعالى بعد أن قصوا لهم رؤاهم لم يبادر في تفسيرها بل قال مباشرة استغلالا

للفرصة: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩]، فكنت إذا قصّ عليّ أحدهم رؤياه فسّرتها له تفسيرًا يفتح له باب الأمل، ويقوّي ثقته بالله، ويحثّه على التوبة والإقبال على العبادة، وأبشّره أن الرؤيا بشرى بالفرج والفرحة، وأن الله يبدّل حاله صلاحًا بعد بلاء، كما بدّل حال يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد السجن إلى التمكين والعز(١).

وكانت هذه التفسيرات سببًا في هداية بعضهم واستقامتهم، إذ وجدوا في حديثي عن الرؤى ما ينعش قلوبهم، ويقرّبهم إلى الله، حتى صاروا يذكرون الله بفرح وطمأنينة، ويوقنون أن وراء الكرب فرجًا، وأن وراء المحنة منحة، فكان السجن -بفضل الله- روضة إيمان، تفيض فيها الدموع، وتُروى فيها القلوب باليقين والرجاء.

المشهد الحادي عشر: يوم الوداع

بعد خمسة أيام من المواعظ والدروس، جاء يوم الوداع وهي آخر يوم سأزورهم فيها، وكنت أظن أن الأمر عابر، لكني فوجئت بالمشاعر التي غمرتني، اجتمعوا عليّ يعانقونني ويقبّلون رأسي، يقولون: لا تتركنا يا شيخ، عد إلينا، ورأيت دموعًا تنهمر من أعين بعضهم، وشعرت أني تركت جزءًا من قلبي خلف تلك الجدران، أعطيتهم رقمي، فحفظوه في صدورهم، ثم لما خرجوا ظلوا

(١) **تنبيه**: هذا التأول هو الذي احتملته رموز تلك الرؤى، وليس تفسيرا حسب الهوى.

يتواصلون معي عبر الواتساب، يسألونني ويشكرونني، وبعضهم أخبرني أنه تاب وصار محافظًا على الصلاة، مستقيمًا على طاعة الله.

خلاصة الرحلة: تلك الأيام الخمسة كانت من أعظم ما مرّ بي في رحلتي الدعوية بدمشق، ولم أدخل سجنًا بل دخلت إلى قلوب عطشى، فارتوت بكلمات التوحيد، ورأيت كيف يغير القرآن والنصح الصادق مسار إنسان من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ومن حينها أيقنت أن الدعوة ليست مقصورة على المنابر ولا المساجد، بل كل أرض يصلها صوت الحق فهي منبر، وكل قلب يستقبل النصح فهو مسجد.

المبحث السادس عشر: مواقف مع الدخان والمدخنين واستجابتهم:

كان من أعجب ما رأيت في دمشق انتشار التدخين بين الناس انتشارًا مذهلًا، حتى إنك لتراه في أيدي الصغار والكبار، الرجال والنساء، كأنها عادة ملازمة لا تكاد تخلو منها البيوت والمجالس، فإذا سألت بعضهم عن السبب، قالوا: ما مررنا به من ضيق وتوتر أيام النظام النصيري البائد جعل الناس يفرّون إلى الدخان طلبًا للراحة، وهكذا استشرى هذا البلاء بينهم حتى صار عادة يومية.

لكنني وجدت أن الفطرة ما زالت حيّة، فما إن تُبيّن لهم حكم التدخين وأضراره حتى ترى وجوههم تتغير، وعيونهم تدمع، وكثير منهم يعاهد الله على تركه من ساعته، فقد رأيت رجلًا في السبعين من عمره يبكي كالطفل لما ذكرت له أدلة التحريم، وقال: والله لا أعود له أبدًا، ورأيت طفلًا في الثانية عشرة يرمي السيجارة من فمه بعد نصيحة يسيرة، ويقسم أنه لن يعود إليها.

ومن المواقف الطريفة التي لا أنساها، أنني جلست مع شاب طيب اتفقنا أن يكون رفيقي في بعض مجالس الدعوة، فإذا به يُخرج سيجارة في أول لقاء ويقول لي ببراءة: تشرّب يا شيخ؟ فابتسمت، وقلت: جزاك الله خيرًا، لكن هذا لا يصلح لي ولا لك، ثم ذكرت له الأدلة، فتعجب وقال: ما كنت أعلم أنها حرام، فوعد أن يتركها.

وفي موقف آخر دخلت محلًا للعطور، فتبادلت الحديث مع صاحبه، ونصحته ببعض الأمور، فلما علم أنني سلفي قال: أنا أحب السلفيين، ففرحت بذلك، لكن قبل أن أخرج ناولني سجارة، وقال: تشرّب يا شيخ؟ هذه بنكهة التفاح! فضحكت، ثم بينت له الأدلة، فشكرني وقال: ما كنت أعلم أنها حرام.

وقد ذكرت لهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩]، وحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» رواه ابن ماجه (٢٣٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥١٧)، وقلت لهم: إن الدخان جامع للضرر في الدين والدنيا؛ ضرر على البدن والصحة والمال، وضرر أعظم على القلب الذي يجب أن يكون عامرًا بذكر الله.

وأختم نصيحتي لهم ولغيرهم: أيها الأحبة في بلادنا الحبيبة سوريا وغيرها، عودوا إلى الفطرة، واهجروا هذا الدخان الذي لا يجلب إلا المرض والفقر وسخط الرب، واعلموا أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

تذكروا حرمتها وأن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، تذكير صريح بوجوب حفظ النفس ووقايتها من كل ما يضر.

وقال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فالدخان يدخل في باب الخبائث المفسدة للبدن والروح والمال.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» رواه الترمذي (٢٤١٧) عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، فالتبذير في الدخان وإهدار المال في ما يضرّ لا ينسجم مع مسؤولية المسلم أمام ربه.

تنبيه: لم يكن عرضهم للسجائر عليّ من باب السخرية أو الاستخفاف، وإنما عن جهل بحكمها، فهم يظنونها أمرًا عاديًا لا إثم فيه، فإذا بينت لهم حرمتها استحوا وأظهروا التأثر، إذ أكثرهم عوامّ بسطاء غُرِّر بهم، وقد زاد من جهلهم أن كثيرًا من المنتسبين إلى الدين – من الصوفية وغيرهم – كانوا يدخنون أمامهم، فصار الناس يظنون أن الأمر لا حرج فيه.

المبحث السابع عشر: مواقفي مع الصوفية في دمشق

لما دخلت دمشق وأقمت فيها أياما، وجدت أن واقع المساجد هناك مؤلم أشد الألم؛ إذ إن نسبة ٩٠٪ من مساجد دمشق ووزارة الأوقاف كلها بأيدي الصوفية والأشاعرة، فلا تكاد تجد مسجدًا لأهل السنة السلفيين، إلا ما ندر، وهذا وحده

كان يكفي أن يُشعرك بالغربة، وأن يذكرك بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» رواه مسلم (١٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان أول ما واجهته من مشاهداتهم الغريبة ما رأيته في المسجد الأموي يوم الجمعة، حيث تفاجأت بفرقة كاملة من المؤذنين يجلسون على كراسي خلف الإمام، كل واحد منهم أمامه مكبّر صوت، حتى إذا أذّن المؤذن الأول ردّدوا خلفه جميعًا بطريقة ملحّنة كالأغاني، بنغمة موسيقية جماعية، وكأنني في مسرح غناء لا في بيت من بيوت الله! وأيضا يوم الجمعة قراءة سورة الكهف بمكبر الصوت، ثم أذكار جماعية مليئة بالبدع والصلوات المخترعة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتى ضاق صدري، وكدت أن أخرج، ولما صعد الخطيب المنبر، جاء بخطبة مليئة بالسجع والكلام الجانبي الذي لا طائل تحته، ثم مدح الدولة كما كان يفعل في زمن بشار، ويتلونون مع كل حاكم، فهتف الناس بالتكبير عند ذكره بعض الكلمات الرنانة.

ثم بعد الصلاة رأيت الناس يتجمعون عند قبر داخل المسجد، يقولون: إنه قبر نبي الله يحيى، وقد بينت لك قبل أنه غير صحيح، فكنت أنصحهم وأبين أن هذا لا يجوز، فكانوا يسمعون ويصغون، مما دلّ على أنهم رغم جهلهم لم تفسد فطرتهم.

ومن عجيب ما رأيت أن القوم كانوا يختبرون الداعية إذا جاءهم وقدموه للصلاة بهم: فإن قال بعد الإقامة: أقامها الله وأدامها، علموا أنه منهم، وإن جهر بالبسملة علموا أنه على مذهبهم، فإن خالفهم عرفوا أنه سلفي، فلما قدموني

للإمامة قلت: استووا، سدوا الخلل، لا تدعوا فرجات للشيطان، ولم أقل طقسهم المبتدع، ثم كبرت ولم أجهر بالبسملة، فالتفت بعضهم إلى بعض دهشة، وقد ظهر عليهم القلق، وبعد الصلاة لم أترك لهم فرصة لإقامة أذكارهم الجماعية، بل أمسكت الميكروفون وبدأت مباشرة بالوعظ والتذكير بفضائل التوحيد والتحذير من الشرك، وبيان أركان الإسلام، وكان لذلك أثر عظيم؛ فقد بكى بعض الحاضرين والتف الشباب حولي حتى مكثت أكثر من نصف ساعة بعد المحاضرة أستقبلهم ويصافحونني ويقولون: نحن أمانة في أعناقكم يا دعاة الله، لا تتركونا.

وفي بعض المساجد الأخرى، كنتُ أستأذن أول الأمر فيسمحون لي بالوعظ، ظانّين أني من جماعة التبليغ أو من أتباع طرقهم، فإذا رأوا مخالفتي لطقوسهم أيقنوا أنني سلفي، فصاروا يشترطون إذن وزارة الأوقاف، محاولين سدّ الباب أمامي، ولكن الله يسّر لي ترخيصًا رسميًا من وزارة الأوقاف، فصار ذلك بمثابة انتصار عظيم، إذ لم يعد بوسعهم منعي ولا إيقافي من فضل الله.

وكان من دهائهم أنهم يسألون من يأتي إليهم يستأذن لإلقاء كلمة عن علاقته بمشايخهم في اليمن مثل الجفري، وعمر بن حفيظ، الصوفيين الضالين، فكنت أجيب وأحيّد السؤال، حتى لا يضيع المقام، إذ كان همي الدعوة ونشر السنة لا الجدال العقيم، وكنت استعمل معهم التورية، فأقول: أنا من جماعة الدعوة، فهم يتبادر لأذهانهم أني أعني أنني من جماعة التبليغ؛ لأنهم يتسمون بهذه التسمية.

ولما يأذنون لي فأبدأ قال الله قال الرسول، وأذكر التوحيد وأحذر من الشرك من هنا يدركون أنني سلفي، وأن هذا الأسلوب لا يشبه أسلوبهم، ولا أسلوب جماعة

التبليغ، ومن هنا أمام العامة لم يجدوا علي مأخذًا ظاهرًا، وإن كانوا يغيظون من أثر الكلمة في قلوب الناس.

أما الناس والعوام فإن فطرتهم السليمة كانت تكشف زيف الصوفية، وكنت إذا سألت طفلًا: أين الله؟ أجاب فورًا: في السماء، بل بعضهم استدل بقوله في السجود: سبحان ربي الأعلى، بل إن بعض كبار السن كانوا يواجهونني بالدموع قائلين: منذ سنين لم نجد موعظة تُحرك قلوبنا كهذه الليلة، وهذا وحده أكبر نصر، إذ بدت لي دمشق كلها عطشى إلى كلمة الحق، ولم تستطع بدع الصوفية أن تغير فطرة أهلها، وهكذا كان موقفي مع الصوفية في دمشق مزيجًا من الألم لرؤية ما أحدثوه في بيوت الله، ومن الفرح إذ جعل الله لكلمة الحق طريقًا إلى قلوب الناس رغم حصونهم وحواجزهم.

تذكرت حينها ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سجنه الصوفية والأشاعرة مرارًا بدمشق، لأنه كان يفضح باطلهم ويرد شبهاتهم، وكذلك ما نزل بابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين عارضهم، فالتاريخ يعيد نفسه: مكرٌ قديم بثوب جديد.

ومع ذلك كان العوام يستنكرون عليهم، ويقولون لي سرًّا: اصبر يا شيخ، أنتم السلفيون على الحق، وهؤلاء قد قاربت أيامهم على الانتهاء.

المبحث الثامن عشر: منع كتب السلفيين في زمن النصيرية

وفي عهد النصيرية الباطنية –أتباع بشار وأبيه من قبله– كانت كتب أهل السنة السلفيين كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، وابن باز، وابن عثيمين رحمهم الله جميعًا، تُعد محرمة في مكتبات دمشق، ومن وُجد عنده

شيء منها عوقب وربما قتل، ولذلك لم أرها في رحلتي هذه بينما تنتشر كتب الأشاعرة كابن حجر والنووي –رحمهم الله–.

أما كتب العقيدة السلفية والتوحيد الخالص، فكانت غائبة غيابًا يكشف حجم محاربتهم للمنهج السلفي الحق، وبعد التحرير بدأ الأمر يتغير، إذ ظهرت مكتبات سنية مستقلة تدخل إليها كتب السلفيين شيئًا فشيئًا، رغم محاولات الخصوم لعرقلتها، ولكن الحمد لله بعد سقوط حكم النصيرية وقيام الدولة الجديدة، لاحظت بشائر طيبة بانتشار المكتبات التي تعرض كتب العقيدة الصحيحة، وإن كانت محدودة، إلا أنها تُبشّر بمستقبل أفضل، ورأيت في عيون الشباب فرحة حين يجدون كتب شيخ الإسلام وابن القيم وكتب علماء نجد كابن باز وابن عثيمين عليهم رحمة الله.

المبحث التاسع عشر: موقف العوام واستنكارهم على الصوفية

كان العوام في دمشق أكثر وعيًا مما يتصور المرء، فقد كانوا يستنكرون على الصوفية منعهم لي من إلقاء الدروس، ويجعلون ذلك حديث المجالس: لماذا يمنعون السلفي الذي يدعو إلى الكتاب والسنة؟، بل جاءني بعضهم وقال بلهجة صادقة: أنتم أهل الحق، ونحن معكم، وهذا الاستنكار الشعبي جعل الصوفية في حرج أمام الناس، وكشف عوارهم أمام المجتمع.

المبحث العشرين: الحصول على الترخيص الرسمي وأثره

وفي خضم هذه الدعوة، جاء الفرج من الله، إذ وفقني سبحانه باللقاء ببعض المسؤولين الذين أحبوا دعوة السنة، وأبدوا لي ثقتهم، فتوسطوا لي في وزارة الأوقاف من هنا أصدروا لي ترخيصًا رسميًا من الوزارة، يُمكّنني من إلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد بلا اعتراض من أحد.

لقد كان هذا الترخيص بالنسبة لي نصرًا عظيمًا، وفتحًا مبينًا؛ إذ صار الصوفي الأشعري إذا حاول منعي يُسكت بحجة واحدة: معه ترخيص من الدولة، فالحمد لله الذي جعل كلمة الحق تعلو، وجعل لأهل السنة مكانة وهيبة.

وكان لهذا أثر عميق؛ إذ شعر الناس أن الدولة الجديدة بقيادة الرئيس البطل السني أحمد الشرع تؤيد السنة وأهلها، وأن زمام البلاد يتجه إلى تمكين الدعوة السلفية، وتطهير المساجد من البدع، فكان الناس يزدادون حبًا للدعوة، ويزداد قلبي يقينًا بأن المستقبل للشام وأهله على منهج السلف الصالح بعون الله.

المبحث الحادي والعشرين: ثناء الناس والدعاة على الدولة الجديدة

من أعظم ما رأيت في دمشق – بعد سنين طويلة من القهر والظلم على يد النصيرية والبعثيين – أن الناس يتحدثون عن الدولة الجديدة بقيادة الرئيس أحمد الشرع حديث المحب المخلص لا المكره المسلوب، كنتُ إذا جلست مع الكبار أو الصغار، مع الرجال والشباب لا أسمع إلا كلمات الثناء، والدعاء لهم بالنصر والتوفيق، كانوا يقولون: لقد ردّ الله لنا شيئًا من كرامتنا، وأعاد لنا الأمن بعد الخوف، والعدل بعد الجور، والعزة بعد الذل، لقد صار لنا صوت بين الأمم.

ورأيت للدولة الجديدة ورجال الأمن هناك محل احترام الجميع، يمرّ في الشوارع فينظر الناس إليه بعين الفخر، يرون فيه جيش الفتح الأول، يحمل لواء الشام ويحرس أرضها.

ولم يقف الأمر عند المحبة العاطفية، بل تعداه إلى آثار عملية، فقد بدأت كثير من المنكرات تتلاشى بقوة الدولة: أغلق بعض أوكار الفساد، ومنع كثير من المظاهر الفاجرة التي كان النظام النصيري يشجعها، وصارت المساجد عامرة بالدروس في بعض الأماكن، والدعاة يتحركون بأمان، والعلم ينتشر في أوساط الناس.

قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فوجود دولة عادلة تحمي الدعوة وتنصرها باب عظيم من أبواب الخير.

الخلاصة: أن الدولة الجديدة بقيادة الرئيس السيد أحمد الشرع، كانت نقلة فارقة، إذ فتحت أبوابها للدعاة السلفيين(١) ومنحتهم تراخيص رسمية، وأذنت لهم بالدعوة في أي مسجد دون اعتراض من أحد.

وعني شخصيا كنت أمر بالنقاط الأمنية فيُرحب بي الجنود، ويقولون: تفضل يا شيخ، أهلًا وسهلًا، بل كانوا يرون في اللحية علامة أمن وبركة، بعدما كانت في زمن بشار علامة خطر وذريعة للتعذيب والاعتقال.

وقد سمعت من العوام ثناءً عظيمًا على الرئيس أحمد الشرع، يذكرونه بالخير في

---

(١) أعني بهم الذين من إدلب فهم يقولون ذلك.

مجالسهم، ويثنون على جيشه الذي يُغيّر المنكرات وينشر الأمن. يقولون: والله ما رأينا قائدًا كريمًا مثل هذا، ويُضيف آخرون: نسأل الله أن يُطيل عمره، فالدولة اليوم تمسك بزمام البلاد بقوة، وتحب الخير، وتجلّ الدعاة، وتفتح لهم الطريق لنشر التوحيد.

المبحث الثاني والعشرين : مشاهد الحرب والصمود أيام حرب السويداء(١)

ومن المشاهد التي حفرت في الذاكرة وأنا في دمشق أيّام الحرب، ما وقع حين ثارت جموع المقاتلين من أهل الشام، ولا سيما من قبائل دير الزور، وإدلب، وحماة، ودرعا، وحلب(٢)، وغيرهم كنت أراهم بأم عيني في الطرقات، وجوهًا

---

(١) تبعد السويداء عن دمشق قرابة (٩٠) كيلومترًا إلى الجنوب الشرقي، وتقع على مقربة من الحدود الأردنية، وشرقي مرتفعات الجولان المحتلة من قِبل اليهود، وهي معقل الدروز، وهم طائفة باطنية منحرفة العقيدة، نشأت من الإسماعيلية وتؤمن بعقائد باطلة كالتناسخ، وتأليه بعض البشر، وقد عُرف عن اليهود دعمهم للدروز بالسلاح والمساندة بحجة حمايتهم، لما بينهم من عداوة ظاهرة لأهل الإسلام وميلٍ إلى موالاة أعدائه.

(٢) ١- دير الزور: تقع في الشرق السوري، وتبعد عن دمشق نحو (٤٥٠) كيلومترًا تقريبًا، وهي من أبعد المحافظات عنها، وتطل على نهر الفرات، ويُعرف أهلها بالكرم والشجاعة.

٢- إدلب: تقع في الشمال الغربي من سوريا، على بُعد نحو (٣٢٠) كيلومترًا من دمشق، وهي قريبة من الحدود التركية، وتُعد من حواضر أهل السنة في الشمال.

=

باسلة وقلوبًا مؤمنة، يهبّون إلى الجبهات لمواجهة الدروز الكفار في السويداء، بكل شجاعة وإقدام، كأنما يسابقون إلى الموت كما يسابق غيرهم إلى الحياة، لقد أيقنت يومها أن في أهل الشام من روح التضحية والجلد ما يجعلهم صفًا متماسكًا لا تهزه الأعاصير بعون الله وتوفيقه، وفي خضم تلك الأحداث المزلزلة، وقع قصفٌ مفاجئ من طيران دولة اليهود –إسرائيل– استهدف مبنى وزارة الدفاع في دمشق بعدة ضربات متتابعة، فاهتزت المدينة بأكملها من دويّها، وارتجفت الجدران تحت وقعها، وارتسمت على وجوه الناس علامات الصدمة والفزع، وقد راح ضحية ذلك الهجوم عدد من رجال الدولة الذين كانوا في المبنى، نحسبهم شهداء عند الله، ولا نزكّي على الله أحدًا.

٣- حماة: تقع في وسط البلاد بين دمشق وحلب، وتبعد عن دمشق قرابة (٢١٠) كيلومترات، وتشتهر بنواعيرها التاريخية وأصالتها الدينية.

٤- درعا: تقع جنوب دمشق، وتُعدّ بوابة الشام من جهة الأردن، تبعد عنها نحو (١٠٠) كيلومتر فقط، وأهلها معروفون بثباتهم وشجاعتهم.

٥- حلب: تقع في الشمال على مسافة تُقارب (٣٦٠) كيلومترًا من دمشق، وهي كبرى المدن السورية، وأحد أركان تاريخ الإسلام في بلاد الشام.

وهذه المناطق بالذات عرفت بالمحافظة على كثير من الخصال المحمودة من لباس نسائهم للحجاب الشرعي، ولبس رجالهم للقمص الأثواب وغيرتهم على الدين.

بشائر النصر على الدروز في السويداء

ومن الأخبار المفرحة التي كانت تطرق سمعي في تلك الأيام، أيام اشتداد المعارك بين القبائل والجيش ضد الدروز الكفار في السويداء، أن الله قد فتح على إخواننا، فأثخنوا في عدوهم قتلًا، وتقدموا بشجاعة واستبسال عظيم وثبات منقطع النظير بفضل الله.

ولقد رأيت بأم عيني كيف هبّت القبائل من كل حدب وصوب، وكأن الأرض أنجبت رجالها دفعة واحدة، يزحفون إلى ميدان الوغى زحفًا، لا تردهم المخاوف ولا تثنيهم العقبات بعون الله وتوفيقه، وكنت إذا تواصلت مع أحد الإخوة من عوام الناس أصحابي الذين تعرفت عليهم ومن الجيران أسأله: أين أنت؟ فيجيبني بلهجة واثقة: أنا في السويداء.

ثم يبعث لي من قلب المعركة صورًا ومقاطعًا تبين رحى الحرب دائرة، وصليل السيوف الحديثة –من بنادق ومدافع– يدوّي في الآفاق، وكانت تصلني مشاهد تبين جثث القتلى من الدروز مطروحة على الأرض، وأنباء الانتصارات التي ترفع الرأس وتشرح الصدر، وتعيد للأمة في تلك البلاد شيئًا من عزتها التي كانت مفقودة.

فوالله لقد كان وقع تلك الأخبار عليّ بردًا وسلامًا، يثلج الفؤاد، ويوقظ الأمل، ويجعلني أحمد الله أن جعل في هذه البلاد الشامية بقية من رجال يقفون في وجه الباطل، ويذودون عن حياض الدين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ [التوبة: ١٤].

المبحث الثالث والعشرين: كلمة شكر لدولة الرئيس القائد أحمد الشرع حفظه الله

إن من تمام الوفاء والعدل أن أسجل شكري لهم وثنائي على صنيعهم الكريم، فهم -بعد الله- سبب فتح المجال للدعوة، وفتح أبواب الخير لي ولغيري من طلاب العلم والدعاة، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء، ورفع ذكرهم، وأقر أعينهم بانتشار السنة في ربوع الشام، وبارك الله في رئيسهم البطل الموقر أحمد الشرع، وأسأل الله أن يعز الله به أهل الإسلام.

وقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَّ» رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٠١)، فمن باب شكر الله كان لزامًا أن أشكرهم على ما قدموا، وأدعو لهم بظهر الغيب أن يثبتهم الله على الحق، ويزيدهم تمكينًا، ويجعلهم مفاتيح للخير مغاليق للشر، وأن يجعل مسعاهم سببًا في علو كلمة الله، ورفع راية التوحيد والسنة في أرض الشام المباركة.

المبحث الرابع والعشرين: كرم أهل الشام وسماحتهم في البيع والشراء

من أبرز ما شدني في دمشق كرم الناس وبشاشتهم، تدخل إلى دكان بائع الخبز فيستقبلك بابتسامة، ويدعو لك بدعوات طيبة، وربما رفض أن يأخذ منك الثمن

كاملًا، ويقول: على البركة، يا شيخ، والتاجر إذا باعك شيئًا بارك لك فيه، وكأن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن البركة في البيع والشراء يتجسد أمامك.

وقد وجدتهم لا يتشددون في المساومة، بل في كثير من الأحيان إذا علموا أنك غريب أو داعية، ألحوا عليك أن تأخذ السلعة بدون مال أو بأقل من ثمنها، وهذه خلة من شمائل العرب الأصيلة التي ما زالت حيّة في قلوب أهل الشام.

المبحث الخامس والعشرين: نظام الأسرة وعادات الطلاق

أيها الأحبة، إن الأسرة في الإسلام لها مكانة عظيمة، فهي اللبنة الأولى للمجتمع، ومن أجل ذلك شدّد الشرع في أحكام الزواج والطلاق، ورتّب على كل منهما ضوابط تحفظ الحقوق وتصون الكرامة، وقد لاحظت أن بعض الناس في سوريا – هداهم الله – إذا حصل الطلاق لا يقطعون الأواصر الاجتماعية، بل قد تبقى المرأة في بيت طليقها بعد انتهاء العدة، تقوم بخدمته وخدمة أولاده بحجة ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، أو مراعاة الأولاد، وهذا وإن كان من جهة يدل على بقايا احترام وتماسك في النفوس، إلا أن فيه مخالفة صريحة للشرع.

فالله تعالى قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فبيّن أن المطلقة إذا انقضت عدتها صارت أجنبية عن الرجل، لا تحل له إلا بعقد جديد ومهر جديد، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، فجعل الشرع غاية واضحة: إما الإمساك بالمعروف زمن العدة، أو الفراق بعدها.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرٗا ١﴾[الطلاق: ١].

وقد صح عن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: طلّقني زوجي ثلاثًا فلم يجعل لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سُكنى ولا نفقة رواه مسلم (١٤٨٠)، وهذا نص قاطع على أن المطلقة البائن لا سكنى لها عند زوجها السابق، فكيف بمن تبقى معه في بيته وتتعامل كأنها لا تزال في عصمته؟!

النصيحة: أوصي النساء في ذاك البلد وغيره أن يتقين الله، فلا يبررن هذه العادة بأنها من الخلق الحسن، وهو من مراعاة حفظ الأولاد من الضياع؛ فهو تبرير غير سائغ، فالخلق الحسن أن يلتزمن حدود الله، والزوج المطلق عليه أن يقوم بحق أبنائه ونفقتهم وزيارتهم بالمعروف، لكن لا يجوز له أن يبقي المطلقة في بيته، أو أن يكون بينهما تزاور وتكشف وجهها له، أو تصافحه كل هذا حرام، ولا يجوز، فهي أجنبية عليه وهو أجنبي عليها، والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة:٢٢٩].

فيا أهل الشام المبارك، الزموا شرع الله في أمور الأسرة كما في أمور العبادة والدعوة؛ فإن أعظم البركة في اتباع الوحي، وأعظم الشقاء في مخالفة أمر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

المبحث السادس والعشرين: واقع المرأة بين الالتزام والتبرج

إن مما يألم القلب في دمشق وغيرها من مدن الشام أنك ترى التبرج والسفور قد عمّ وطمّ، فلا تكاد تمشي في الأسواق أو الشوارع إلا وتجد النساء كاسيات عاريات، متبرجات بزينة سافرة، أو متعطرات يمررن بين الرجال، غافلات عن وعيد الله الشديد، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن من النساء من يكنّ سببًا لهلاك أنفسهن، فقال: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» رواه مسلم (٢١٢٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا الوصف – وللأسف – يراه من زار تلك البلاد رأي العين في كثير من نساء الشام اليوم، مما يستوجب النصح والتحذير.

وهذا الحال إنما هو بسبب الجهل بشرع الله، وقلة من يذكّر النساء بأحكام دينهن، وضعف الدعوة في أوساطهن، حتى تُركن فريسة لوسائل الإعلام المفسدة، ولشبهات دعاة التغريب، ولو وجدْنَ من يبين لهن أحكام الحجاب والستر، وأمرهن برفق لتغير الحال وارتفع البلاء.

النصيحة للنساء: اتقين الله أيتها المسلمات، فالحجاب فريضة عظيمة، لا خيار

فيها ولا جدال، ومن تهاونت به فهي عاصية لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فعودوا إلى ستر وجوهكن وأبدانكن، ولا يغركن دعاة الفساد الذين يزينون التبرج ويصورونه حرية، بل هو ذل ومعصية.

النصيحة للأولياء: أيها الآباء والأزواج والإخوة، اعلموا أنكم مسؤولون أمام الله عن نسائكم، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» رواه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فليس عذرًا أن تقولوا: هكذا المجتمع، أو لا نستطيع منعهن، بل الواجب أن تمنعوهن وتذكروهن وتقوموا عليهن بالقوامة الشرعية، فمن ترك أهله يتبرجن دون إنكار فقد خان الأمانة.

إن التبرج لم يكن يومًا سبب عزٍّ ولا كرامة، بل هو سبب غضب الله ونزع البركة، وهو باب فتنة وهدم للأسرة والمجتمع، وما نزل بلاء على أمة إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة، ومن أعظم الذنوب اليوم هذا التبرج المنتشر الذي يفسد القلوب قبل الأبدان.

اتقين الله يا أيتها النساء، فالحجاب حصن لكنّ، وستر لكرامتكن، لا هو حبس ولا عجز، بل هو طاعة لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو علامة إيمان وحياء، واعلمن أن الجمال الحقيقي ليس في الزينة الظاهرة، بل في نور الطاعة، وحسن الخلق، وصفاء القلب، ولتعلم المرأة أن التزامها بالحجاب ليس شأنًا شخصيًا فحسب، بل هو حفظ لعرضها، وحماية للمجتمع كله من الفتنة، وأنها بدعوتها إلى الحياء تكون قدوة صالحة لغيرها من النساء.

فيا أهل الشام المبارك، كما حُفظت بلادكم يومًا بجهاد الرجال، فستُحفظ أيضًا بعفاف النساء وحيائهن، وليعلم الجميع أن عودة الأمة لا تكون إلا بعودة نسائها إلى الطهر والستر، فإن المرأة نصف المجتمع، وإذا صلحت صلح النصف الآخر تبعًا لها.

المبحث السابع والعشرين: عناية كبار السن بتلاوة القرآن

ومن المشاهد التي أثّرت في نفسي أيّما تأثير، ما رأيته في دمشق وسائر البلاد من مشهدٍ يبعث الرجاء ويذكّر بعظمة هذا الدين، وهو اشتغال كثيرٍ من كبار السن بتلاوة كتاب الله تعالى قبل الصلوات وعقبها ولا سيما صلاة الفجر، وكنتُ إذا صليتُ معهم رأيت صفوفًا من الشيوخ والشباب في مؤخرة المسجد فالكراسي معدة للجوس عليها لكبار السن أو بعد الانتهاء من الصلاة يرجع من أراد القراء للقرآن فيجلس فيها ثم كلٌّ ممسك بمصحفه، يقرأ أو يتلقن.

وأيضا أكثرهم يعتنون بأحكام التجويد، يقرؤون بتؤدةٍ وتعظيمٍ لآيات الله، فتشعر أن نور الوحي يسري في وجوههم، وأن قلوبهم لم تزل حية رغم ما مرّ بهم من محنٍ وحروب، وكذلك رأيت محافظة كثير من كبار السن على صلاة الجماعة، فالفطرة فيهم نقية، والقلوب مقبلة على الطاعة، لكنك تجد – في المقابل – واقعًا مؤلمًا: انتشار التبرج في الشوارع، وترك الصلاة عند طوائف من الناس، واشتغال كثير من الشباب بالغناء واللعب واللهو وضياع الأوقات، فالمشهد في الشام مزدوج؛ ظلمة معصية تقابلها أنوار طاعة، وباطلٌ يزاحم الحق، لكنّ الفطرة الصادقة أقوى بإذن الله.

غير أنّ البلاء الأكبر الذي وقفتُ عليه، أنّ أكثر المساجد يتبع أئمتها ومشايخها للطريقة الصوفية الأشعرية، فدخلت على الناس كثيرٌ من البدع في الأذكار والصلوات والأعياد، وتأثر بها بعض العامة عن حسن نية، ومع ذلك، فإنّ ما لمسته من صفاء القلوب وحسن الاستعداد لقبول النصح يبشّر بخيرٍ عظيم، فإنّ فطرة أهل الشام فطرة طيبة، وقابلية الحق فيهم باقية لا تزول، وإذا بُعث فيهم العلم الصحيح زال الدخن وانقشع غبار البدع بإذن الله، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

المبحث الثامن والعشرين: مكانة كبار السن والاحترام الأسري

أهل دمشق يعظمون كبار السن تعظيمًا ظاهرًا، ترى الشاب يقوم لكبير السن في المجالس، وترى الأطفال يقبلون يد الأبويين والجد والجدة والعم والخال، وهذا الاحترام الأسري ينعكس على حياتهم الاجتماعية، فيغدو الكبار مصدر تقدير واحترام، وكلمتهم مسموعة، حتى وإن ضعفت أجسادهم، وهو أمر نفتقده في كثير من المجتمعات التي غلبت عليها الماديات.

المبحث التاسع والعشرين: البدع الشائعة في الأعياد والصلوات

جاء يوم عيد الأضحى وأنا في دمشق، فقلت في نفسي: انظر ماذا يفعل القوم في طقوسهم وبدعهم، فإذا بي أشاهد مشهدًا عجيبًا يختلط فيه الفرح المشروع بالعيد مع ما أدخله الصوفية من خرافات وأعمال مبتدَعة، يجتمع الناس في المساجد، فيرفعون أصواتهم بأذكار جماعية موحَّدة، ويرددون حديثًا موضوعًا

ينسبونه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «زينوا أعيادكم بالتكبير»، وهو حديث ضعيف(١)، ومع ذلك جعلوه شعارًا لهم، يكررونه ويضيفون إليه أدعية مبتدَعة بأصوات جماعية، حتى يضيع مع ذلك جمال التكبير المشروع الذي سنّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، القائم على الانفراد والتنوع في الصيغة، بعيدًا عن التلحين والابتداع.

وقد رأيت بعض العوام في تلك اللحظة يتعجبون من هذه المظاهر، حتى قال لي أحدهم بصراحة: يا شيخ، نحن نعلم أن هؤلاء يغالطون الناس باسم الدين، لكننا لا نجد من يقوم فينا بالبيان، فعلمت أن الفطرة لا تزال حية في قلوبهم، وأن الحاجة ماسة لمن يبين لهم دين الله، وهذه المشاهد كلها ترسم صورة حية لواقع

---

(١) وليس هو باللفظ الذي يروونه، وإنما لفظه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**زَيِّنُوا الْعِيدَيْنِ بِالتَّهْلِيلِ، وَالتَّقْدِيسِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّكْبِيرِ**» رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٥١٠)، وهو حديث شديد الضعف، وفي إسناده علتان:

العلة الأولى: عبد الرحمن بن خالد القرشي متروك الحديث.

العلة الثانية: علي بن الحسن السامي متروك الحديث.

ورواه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٣٩) وقال: لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي السَّرِيِّ.

وراه أيضًا في المعجم الصغير (١/ ٣٥٧) وقال: لم يروه عن أبي كثير إلا عمر ، ولا عن عمر إلا بقية تفرد به ابن أبي السري.

المجتمع الدمشقي: صفاء في الفطرة، وكرم في الطبع، يقابله ما علق فيهم من بدع الصوفية والأشاعرة، وبإذن الله ستنتشر في أوساطهم الدعوة السلفية لتكون نورًا يبدد تلك الظلمات.

المبحث الثلاثين: أواخر أيام رحلتي الدعوية في دمشق

ومن جملة ما وقع في أواخر رحلتي الدعوية إلى بلاد الشام أنني تعرفت على أقوامٍ صالحين، دلّوني على مساجد في منطقة تُعرف بمعظمية الشام، وهي منطقة يغلب عليها أهل السنة، وقلَّ فيها تواجد الصوفية، وهؤلاء الإخوة بادروا بالتنسيق لي مع بعض المساجد، فكنت أزورهم مرارًا، وألقي الكلمات والمواعظ، وأبثّ ما يسرّه الله من دروس نافعة، فوجدت خيرًا عظيمًا وبشائر طيبة.

لقد رأيت شبابًا هناك يحبون العلم ويعظمون الدعوة السلفية، ويُظهرون تعطشًا شديدًا لسماع التوحيد ونشره، بل إنهم اجتهدوا أن يبحثوا لي عن بيتٍ أستقر فيه بين ظهرانيهم، وكانوا قد رتبوا لي دروسًا ثابتة كل ثلاثة أيام في أحد المساجد، وحقًا، رأيت في تلك المنطقة خيرًا كثيرًا، وحبًا صادقًا من الناس، وتعطشًا للعلم، لكنهم كانوا بحاجة إلى من يعلّمهم ويوجّههم، إذ أكثرهم من العوام، وإن كانوا ممسكين بالمساجد وقائمين على الصلوات.

غير أن الوقت لم يسعف، فقد كانت نهاية الرحلة والعودة إلى اليمن قريبة، فحزنت أن كل هذا الخير إنما حصل في أواخر الأيام، وزاد حزني أن هناك دعوات وصلتني من أماكن أخرى، من درعا وحلب وإدلب، ودير الزور يطلبون الزيارة، لكن لم نجد فرصة لذلك، فقلنا: حسبنا ما وفقنا الله له في دمشق وما حولها، ففيه

الخير الكبير.

ثم كان من الأحداث الأخيرة أنني علمت بنزول أخينا الداعية الشيخ أكرم الهاشمي –وهو من إخواننا السلفيين المعروفين ومن أصدقاء الطلب في دار الحديث بدماج – إلى منطقة الزبداني(١) فتواصلت به، ثم التقيت به في ذاك المكان، فرأيت هناك خيرًا عظيمًا، إذ كانت المساجد في أغلبها تحت رعاية أهل السنة، وفيها إخوة فضلاء يحبون العلم، ويُظهرون تعطشًا شديدًا للاستفادة من الدعوة السلفية، وقد رتبوا لي في تلك الفترة محاضرات وكلمات، فوجدت إقبالًا حسنًا واستجابة كبيرة.

غير أن أكثر أهل المنطقة مشغولون بأعمالهم، فلم يتفرغوا كما ينبغي لطلب العلم، مع أنهم في أمس الحاجة إليه، وقد كان الشيخ أكرم – حفظه الله – قد أقام بعض الحلقات والدروس، وله طلاب يسيرون معه في هذا الطريق، لكن عددهم قليل. ومن هنا أوصينا إخواننا هناك أن يستغلوا هذه الفرصة المباركة، وأن يلتفوا حول الشيخ أكرم ليستفيدوا من علمه، ويعينوه على تبليغ الدعوة، فإن بلادهم وأهلهم بحاجة ماسّة إلى العلم الشرعي الصحيح، ولا سيما بعد ما مرّوا به من فتن وأهوال.

وقد رأيت فيهم رغبة صادقة أن أستقر عندهم، بل ألحّوا عليّ في ذلك،

---

(١) تبعد عن دمشق قرابة خمسين كيلو.

وعرضوا عليّ أن يخصصوا لي مسجدًا أكون إمامه وخطيبه، وألحّوا كذلك في أن أعود إليهم في زيارات متكررة، وكان وداعهم لي مليئًا بالمحبّة والحرص، مما زادني يقينًا أن هذه البلاد إذا وُفّق لها دعاة مخلصون، وتوفّر فيها العلم الشرعي، فستثمر خيرًا عظيمًا، وتعود منارة للإسلام والسنة كما كانت عبر القرون.

ذكرى الإمام الألباني رحمه الله في الزبداني؟

ومن المواقف التي حفرت أثرًا في قلبي، أنني لما ذهبتُ إلى الزبداني لألقي بعض الكلمات الدعوية، كان من المساجد التي وقفتُ فيها مسجدٌ أخبرني الإخوة أن إمامه وخطيبه في يوم من الأيام كان العلّامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما إن سمعت ذلك حتى غمرني شعور عجيب، كأنني أتنفس عبق الماضي، وأستحضر صور علمائنا الذين عمروا هذه البلاد بعلمهم وجهادهم وصبرهم، وهنالك أحسست أنني لست غريبًا، بل وارث لطريق ممتد، حلقة من حلقات سلسلة العلماء والدعاة الذين تناوبوا على رفع راية السنة في دمشق والشام، وكان هذا المشهد باعثًا على التفاؤل والاعتزاز، وتذكيرًا لي بأن هذه الأرض الطيبة ما خلت يومًا من أهل العلم، وأن بذور الدعوة فيها لا تموت، ولو طال عليها ليل الظلم والبدع.

مفهوم التوفيق وقصة الشاب في الزبداني

ومن المواقف العجيبة التي لا تُنسى في رحلتي الدعوية إلى الزبداني، أنني ألقيت كلمةً في أحد المساجد، حضرها جمع من الشباب، وكان من بينهم شابٌّ مؤذّن للمسجد، نحسبه على خيرٍ وحرصٍ، إلا أنه كان قد تأثّر بطُرق الصوفية،

ورأى فيهم بحسن ظنه أنهم أهل الحق، لأنهم أصحاب لحى وثيابٍ، ويصلّون ويخطبون بالناس، غير أنه كان في داخله قلقٌ واضطراب، يبحث عن الطريق المستقيم الذي تطمئن إليه فطرته.

وكانت الكلمة بفضل الله عن حقيقة التوفيق، فبيّنت فيها أن التوفيق الحقيقي ليس في المناصب، ولا في المال، ولا في الشهادات، بل هو أن يُوفّق العبد لطاعة الله، وأن يسلك سبيل العلم النافع والعمل الصالح، وأن يُعينه الله على أسباب دخول الجنة، وذكّرت الحاضرين بأن كثيرًا من الناس يخلطون بين التوفيق الدنيوي والتوفيق الأخروي، وأن العبرة ليست بما يُعطيك الله من الدنيا، بل بما يهديك إليه من دينه.

فلما انتهيت من كلمتي، تقدم إليَّ ذلك الشاب متأثرًا، واحتضنني بحرارة، وقال: يا شيخ! لقد أجبتَ عن سؤالي قبل أن أنطقه! كنتُ أريد أن أسألك عن معنى التوفيق، فقد كنت أظن أنني محروم منه، لأني فقير لا أجد عملًا ولا أترقّى في دنياي، واليوم علمت أنني كنتُ أجهل المعنى، وأن التوفيق هو أن يعرف العبد ربَّه ويعمل لآخرته، لا أن ينال من زخارف الدنيا.

ثم قال متألما: لقد جلستُ مع الصوفية زمنًا، فما وجدتُ عندهم علمًا ولا نورًا، علمونا الرقص والبدع، وأغفلونا عن العلم والدين، أما اليوم فقد عرفت الحق، وبإذن الله أني لن أفارق طريق أهل السنة بعد الآن.

ثم دعاني إلى بيته، فذهبت إليه مع الشيخ أكرم الهاشمي وبعض الإخوة من أهل الزبداني، فاستقبلنا بوجهٍ منشرح وقهوةٍ شامية عابقة، ثم جلسنا نحدثه عن

طلب العلم، وعن ضرورة الثبات على المنهج السلفي، ومجانبة جلساء السوء، وكان الشاب متحمسًا، يقول: وبإذن الله أكون من طلاب العلم، فخرجت من بيته وأنا أحمد الله أن رأيت ثمرة الدعوة رأي العين، وعلمتُ أن الرفق بالناس يغير مجرى حياة الإنسان، وأن الله يهدي به من يشاء من عباده، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

المبحث الحادي والثلاثين: هل تأثر أهل سوريا بالنصيرية؟

ومما ينبغي التنبيه عليه أن بلاد سوريا، ليست كما يظن كثير من المسلمين ممن قلّ اطلاعهم على واقعها، من أن النصيرية قد غلبوا على البلاد، واستولوا على أكثرها عقديًا، فليس الأمر كذلك، بل إن الغالبية العظمى من الشعب السوري من أهل السنة، وممن يحبون الدين، ويكرهون الرفض وأهله كراهيةً شديدة، لما رأوا من جرائمهم وطغيانهم وعدائهم للإسلام وأهله.

وأما النصيرية فهم أقلية صغيرة لا تمثل إلا شرذمة يسيرة في بعض المناطق الجبلية والساحلية، وقد تمكّنوا من مفاصل الدولة في عهود مضت في النظام البائد، حتى ظن الناس أن الأمر بيدهم وحدهم، مع أن أهل السنة هم الأصل والأكثرية الساحقة في البلاد، بل إن عامة الناس يبغضون الرافضة والنصيرية أشد البغض، ويرونهم من أشدّ أعداء الإسلام، ويعلمون أن ما نالهم من البلاء إنما هو من تسلط تلك الطائفة المارقة.

فليُعلم إذن أن سوريا بلدٌ سنيٌّ في أصله وشعبه وتاريخه، وأن الروافض فيها أقليات دخيلة مدعومة من الخارج من روافض إيران وغيرهم، وعلى رأس من

يدعمهم اليهود والنصارى، ولا سيما اليهود، الذين رأوا فيهم حلفاء طبيعيين في حربها على الإسلام، فكانت تمدّهم بالسلاح والمعلومات والمعونات، لتبقى شوكةً في خاصرة الأمة، وعدوًا لأهل السنة في الشام.

المبحث الثاني والثلاثين: عبرةٌ من الواقع الاقتصادي ونصيحةٌ للشعب السوري

إن من الحق الذي لا بد أن يُقال، أن ما رأيته بعيني في دمشق وما حولها من الوضع الاقتصادي المتردي، هو صورة واضحة لما تفعله الفوضى والثورات وحين يتسلط الرافضة والباطنيون على بلدٍ مسلمٍ.

فإن الرفض متى تمكن في أرضٍ أهلك الحرث والنسل، وأطفأ نور الدين والدنيا، ودمّر الأخضر واليابس.

لقد عاينتُ حال الناس في سوريا بعد أن استلمت الدولة الجديدة إدارة البلاد، وهي دولة ورثت أرضًا خاوية على عروشها، وبنكًا خاليًا من الاحتياط، واقتصادًا منهارًا تمامًا، والأسعار مرتفعة، والسلع الأساسية بالكاد تُنال، والمعيشة شديدة الوطأة على الناس، فالمئة دولار تصرف هناك بمليون وثلاثمائة ألف ليرة سورية تقريبًا، ومع ذلك لا تكاد تكفي طعام سبعة أو عشرة أشخاص في مطعم متوسط، ورأيت الناس يحملون أوراقًا نقدية كثيرة لا بركة فيها، وقد بقيت عليها صورة الطاغية بشار وأبيه حافظ يومئذٍ، وكأنها تذكيرٌ دائم بما جرّه حكمهم من ذلٍ وضيقٍ وفسادٍ على البلاد والعباد، فكل شيء غالٍ: العقار، والغذاء، والمواصلات، والدواء، وما ذاك إلا ثمرة الظلم الذي مارسه النظام النصيري الباطني على مدى

عقود، والحمد لله الذي أسقط الله حكمه، وإني أوجّه نصيحتي الخالصة للشعب السوري الأبيّ، أن يتعظوا بما مضى، وأن يحافظوا على دولتهم الجديدة، ويشدّوا أزر قيادتهم، ويحرسوا أمنهم ووحدتهم، وألا يسمحوا لأحد أن يعبث بهم باسم الحرية أو الثورة أو المظاهرات، فكم من دمٍ أُريق تحت تلك الشعارات الباطلة، ولتكن غايتهم اليوم أن ينهضوا ببلادهم بالعلم والعمل، وأن يقيموا العدل والإصلاح، وأن يسدّوا الطريق على دعاة الفتنة والفوضى، وأن يتوكلوا على الله في عمارة أرضهم ودينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

فهذه البلاد الغالية، إن تمسّكت بالتوحيد والسنة، وصبرت على طريق الإصلاح، وأطاعت الله ورسوله، فستقوم من جديد بإذن الله، وتعود دار إيمانٍ وأمنٍ وعلمٍ كما كانت عبر التاريخ.

المبحث الثالث والثلاثين: ثمار الرحلة وأثرها على الداعية والناس

أولًا: أثرها على نفسي:

لقد كانت هذه الرحلة المباركة إلى دمشق والشام عامةً منعطفًا عظيمًا في حياتي الدعوية، رأيت فيها مصداق قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» رواه البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فشعرت أن كل كلمة خرجت من فمي، وكل موعظة ألقيتها، إنما كانت تزرع بذرةً في أرضٍ خصبة، عطشى لسقيا التوحيد والسنّة، وكان من أثرها أن ازداد يقيني بحاجتنا إلى الصبر

على الدعوة، وأن الأرض مهما غُيّبت عنها أنوار السنّة فإنها تبقى تشتاق إلى نورها، وتحنّ إلى صوت الحق إذا صدع به الصادقون.

ثانيًا: أثرها على الناس

من أعظم ما لمسته أن قلوب الناس في الشام لينة، سريعة التأثر، تحب من يذكّرها بالله، وكانوا إذا ذُكر عندهم حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ انشرحت صدورهم، وإذا بُيّن لهم التوحيد بَكوا وأكبّوا على الحق، ورأيت كبارًا في السن يبكون من موعظة، ورأيت أئمة مساجد يفتحون مساجدهم ويرحبون، فالحمد لله الذي جعل القلوب تهوي إلى أهل السنة.

ثالثًا: أثرها على المساجد:

بعض المساجد التي زرتها لم يكن يُسمع فيها إلا الذكر الصوفي المبتدع، وأذن الله أن تُقام فيها كلمات التوحيد والسنة، فانتقل المسجد من مجرد مكانٍ للصلوات الخمس إلى منارة علمية تنعقد فيها الدروس والمواعظ، وهذا بحد ذاته من أعظم المكاسب، لأن المسجد إذا عُمّر بالعلم، كان حصنًا من الفتن، وقلعةً تُربّي أجيالًا على العقيدة الصحيحة.

رابعًا: أثرها على العلاقة مع الدولة:

ومن الثمار الجليلة أن الله يسّر لنا القبول عند بعض رجال الأمن من الدولة الجديدة، بل وُضعت الثقة في الدعاة السلفيين هناك.

خامسًا: عبر ودروس مستفادة:

أن الدعوة الصادقة تثمر ولو بعد حين، وقد لا يرى الداعية ثمرتها كاملة، لكن يكفيه أن يزرع البذور، وأن قلوب الناس مفطورة على محبة التوحيد، مهما علا صوت البدعة فترة من الزمن، وأن الصبر والمصابرة في الدعوة من أعظم أسباب التمكين، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

أن وجود دولة تحمي الدعوة وتفتح الأبواب للدعاة كنز عظيم، يجب شكر الله عليه، ثم شكر القائمين عليه.

والخلاصة: لقد كانت هذه الرحلة المباركة بمثابة غرسة في بستان الشام، غرسةً أرجو أن تُثمر علمًا وإيمانًا، وأن تمتد جذورها في قلوب الناشئة والشباب ولعل الله يهيئ لها دعاة من رجال السنة السلفيين من أهلها.

المبحث الرابع والثلاثين: وصية ونصيحة إلى ولاة الأمر في الشام

أيها الولاةُ الكرام: لا يخفى على ذي بصيرةٍ أن ما أنعمَ الله به على هذا الوطن من نَفَسٍ جديدٍ وفتحٍ حين تَعاد إليه ولايةُ أمره وتستتبّ فيه السكينة إنما هو فضلٌ من فضلِه وعنايةٌ منه، فاحمدوا الله على ذلك، واجعلوه زادكم في المسار، لقد رأينا كيف تلاشت شوائب الظلم حين مَنَّ الله بالتمكين، فاستعاد الناس كرامتهم وأمنهم، وانتشر في القرى والمدائن طيفُ الأمل، فمن تمام الشكر لله عَزَّوَجَلَّ أن تُترجموا هذا العطاء إلى سياسةٍ رشيدةٍ تُعينُ على نشر العلم، وتُمكّن أهلَ السنة من أداء دورهم في هداية الناس.

إن من واجب النصح الشرعي أن نوجّه كلمة خالصة لوجه الله تعالى إلى ولاة

الأمر في سوريا، بعد ما مَنَّ الله عليهم بالتمكين ورفع راية الإسلام على أرض الشام، وهي كلمة نابعة من محبة الخير لهم، ورجاء صلاح البلاد والعباد.

أيها الولاة الكرام: تذكروا أن الإمامة أمانة عظيمة، حملها ثقيل، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» رواه البخاري (٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأنتم مسؤولون أمام الله عن كل صغير وكبير في هذه البلاد المباركة.

أوصيكم أولًا أن تُعْلوا شأن التوحيد والسنة، وأن تمكنوا لدعوة السلفيين الصادقين، فهم حملة لواء السنة، وورثة الأنبياء في بيان الحق وتبليغ الشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١]، فهذا هو الوصف الذي ينبغي أن تتحققوا به، وهو الغاية من التمكين.

كما أوصيكم أن تفتحوا صدوركم للعلماء الربانيين، وتجعلوا لهم مكانتهم، وتعينوهم على نشر العلم، فهم أمان الأمة، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واعلموا أن إقامة الشريعة لا تقوم إلا على العلم الشرعي، وأن الانتصارات

الحقيقية ليست في كسب الأرض فقط، بل في إقامة العدل ونشر العقيدة الصحيحة، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن للإسلام دعائم، فمن أراد الله به خيرًا أقامه عليها، وهي: الكتاب، والسنة، والعدل، والجماعة.

ونصيحتي لكم أن تحذروا من أهل البدع والأهواء، من صوفية وأشاعرة وإخوان وغيرهم، فإنهم سبب الفرقة والضعف، ولن تقوم للشام قائمة إلا على العقيدة الصحيحة الصافية، عقيدة السلف الصالح.

هذه نصيحة قلتها على عجالة من باب قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأسأل الله أن يجعلها حجة لكم لا عليكم، وأن يثبتكم على الحق، ويجعل ولايتكم نصرة لدينه، ورفعًا للواء السنة في أرض الشام المباركة.

المبحث الخامس والثلاثين: وصية أخيرة إلى أهل الشام عامة وأهل دمشق خاصة بالعناية بالعلم والدعوة

أيها الأحبة في أرض الشام المباركة، ويا أهل سوريا على وجه الخصوص، يا من جمع الله في أرضكم تاريخ النبوة، وأقدام الصحابة، ودماء الشهداء، أوصيكم بما أوصى الله به عباده في كتابه، إذ قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، فالعلم هو السلاح الأول، وهو الفتح الحقيقي قبل أن تفتح الحصون

والبلدان، وقد ثبت عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهه في الدين» رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

فليكن هذا الحديث نبراسًا لكم ولأبنائكم، أن علامة الخير في الأمة أن ينهض شبابها للعلم الشرعي، يحفظون القرآن، ويتفقهون في السنة، ويعرفون الحلال والحرام، وتأملوا وصية نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيما رواه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» رواه البخاري (٥٠٢٧)، فأهل سوريا اليوم أحوج ما يكونون أن يتعلموا القرآن وأن ينشروه، ليكونوا خير الناس كما وعد الصادق المصدوق، وأن يطلبوا العلم، ويتفقهوا على منهج السلف الصالح.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: تعلموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه ذهاب العلماء، أخرجه الدارمي (١/ ٩٨)، واليوم – وقد كثر الجهل وكثر المضللون – صار حمل العلم أمانة عظيمة على عاتقكم.

واعلموا – رعاكم الله – أن الدعوة إلى التوحيد هي أعظم رسالة، وهي طريق الأنبياء جميعًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلا ينهض أهل سوريا ببلادهم إلا بالعلم والتوحيد، لا بالشعارات ولا بالبدع ولا بالتحزبات.

وقد بشّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الشام ببركة خاصة، فقال عبد الله بن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ»، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ:

خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهَّ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهَّ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ» رواه أبو داود (٢٤٨٣)، صحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

فأنتم – يا أهل الشام – قد اختاركم الله لتكونوا حملة رايته، فكونوا على قدر هذه المنزلة، ولا تظنوا أن النصر بالسلاح وحده، بل هو معقود بالعلم واليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]، ونصرة الله لا تكون إلا بالعلم الصحيح والعمل الصالح.

أيها الأحبة، إنني ما دخلت مسجدًا في دمشق ولا سوقًا ولا مجلسًا إلا وجدت قلوبًا رقيقة، وأعينًا دامعة، وأفئدة متلهفة لكلمة حق، فاستثمروا هذه القلوب، وادفعوا بأبنائكم إلى حلق العلم في مساجد السلفيين -إن وجدت-، فإن أعداءكم يراهنون على أن تبقوا جُهّالًا، لتكونوا تبعًا لهم، وأنتم إذا حملتم العلم صرتم أئمة يهتدى بكم.

واعلموا أن الفتوحات القادمة، والتحرير المنتظر، لن يتم إلا بسواعد العلماء وطلاب العلم؛ فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ما أرسل السرايا ولا جاهد إلا بعد أن ربّى الصحابة على العلم والإيمان، وهذا هو الطريق نفسه اليوم.

أيها السوريون: أوصيكم أن تجعلوا بيوتكم مدارس للقرآن، وأولادكم طلاب علم، وبناتكم حافظات للكتاب والسنة، وأذكّركم بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»

رواه الترمذي (٢٤١٧) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، من حديث أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانظروا كيف قدّم العلم في السؤال.

وختامًا: يا أهل سوريا، أنتم على ثغر عظيم، فاصبروا وصابروا، وكونوا جندًا للعلم قبل أن تكونوا جندًا للسلاح، وأبشروا بنصر الله، فإنه قريب.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل البركات، وبحكمته يُصرّف الأيام والرحلات، لقد كانت هذه الرحلة المباركة إلى دمشق الفيحاء صفحةً مضيئة من حياتي، رأيت فيها كيف يهيئ الله لعباده منابر الحق، ولو بعد طول غربة، وكيف تبقى السنّة حيّةً في القلوب مهما حجبتها غشاوات البدع والضلالات، وإن ما دوّنته في هذه الصفحات ليس إلا غيضًا من فيض، وإشارات من بحر واسع؛ فقد كانت المشاهد كثيرة والأحداث متتابعة، ولو أردت استقصاءها لطال المقام، وربما غاب عن ذهني شيء مما وقع، لكن ما أجمع عليه قلبي أني رأيت خيرًا عظيمًا، وشعرت ببركة الدعوة، ولمست تعطش الناس إلى الدعوة السلفية، وحبهم لأهل العلم والسنة، فكان ذلك مما زادني يقينًا بأن الدعوة هي الروح التي تحيا بها الأمم.

وأكرر الشكر والامتنان إلى الدولة الجديدة، وعلى رأسها الرئيس السيد أحمد الشرع، الذي كان نعم القائد في مرحلة عصيبة، فأمسك زمام البلاد بحزم، وأعطى للدعوة إلى السنة ثقةً ومكانةً لم يعرفوها منذ عقود، والشكر موصول لجيشه الباسل الذي أحبّه الناس صغيرهم وكبيرهم، فصاروا يرونه رمزًا للقوة والأمان بتوفيق الله.

كما أشكر كل من سعى في تسهيل أمري، من الإخوة الفضلاء الذين دلوني على المساجد، ورتبوا لي الدروس، وأكرموني بقلوبهم وتعاونهم، وأسأل الله أن يبارك

فيهم، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتهم.

اللهم احفظ بلاد الشام، وانصر أهلها، وثبّت قلوبهم على التوحيد والسنّة، وأدم عليها نعمة الأمن والإيمان.

اللهم بارك في قيادتها ودولتها وجيشها، وأصلح بهم البلاد والعباد.

اللهم اجعل هذه الكلمات شاهدًا لي لا عليّ، واغفر لكل من قرأها، أو دعا بها، أو نوى بها الخير.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس:

مقدمة الكتاب ٥
التدبيج المنمق على العقد المشوق..... ١٠
دمشق بلباسها الأموي:..... ١٠
نصيحة لطلاب العلم وخاصة في اليمن..... ١١
همسة في آذان الدعاة إلى الله:..... ١٦
الفصل الأول: فضائل الشام وخصائصها..... ١٨
أولا: بركة الشام عموما في القرآن الكريم..... ١٩
ثانيا: فضائل الشام عموما في السنة النبوية ١٩
الفصل الثاني: فضائل دمشق خصوصًا..... ٢٦
الفصل الثالث: زيارات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأرض الشام المباركة..... ٣١
الزيارة الأولى: وهو غلام مع عمه أبي طالب:..... ٣١
الزيارة الثانية: في شبابه قبل النبوة: ٣١
الزيارة الثالثة: ليلة الإسراء والمعراج:..... ٣٢
الزيارة الرابعة: بعد النبوة في غزوة تبوك:..... ٣٢
الفصل الرابع: نبذة عن بعض كبار العلماء الذين عاشوا في دمشق ٣٤

الفصل الخامس: أثر دمشق في نشر السنة ومحاربة البدعة..... ٤١
دور العلماء في ترسيخ السنة: ٤١
موقف دمشق من الصوفية والبدع:..... ٤١
المنابر والكتب: ٤٢
ثمرات بقاء السنة:..... ٤٢
منارات العلم والمدارس التاريخية في دمشق ٤٣
ما قيل في مدح دمشق من شعر ٤٦
الفصل السادس: نبذ عن حماة وتدمر وغيرها ٤٩
أولًا: حماة:..... ٤٩
ثانيًا: تَدْمُر:..... ٥٠
بُصرى الشام:..... ٥١
نوى:..... ٥١
حرّان:..... ٥١
حلب:..... ٥١
الفصل السابع: الصحابة في الشام وبداية الدعوة فيها ٥٢
أولا: دخول الشام في الإسلام:..... ٥٢
ثانيا: استقرار الصحابة في دمشق وما حولها:..... ٥٢

ذكر بعض الصحابة الذين كانوا في الشام: ٥٢
الفصل الثامن: تأسيس الدولة الأموية..... ٥٥
أثره في الشام ودمشق:..... ٥٥
بعض مناقب معاوية وفضائله:..... ٥٥
فائدة في بيان خلفاء بني أمية..... ٥٩
الفصل التاسع: المسجد الأموي ٦٢
تاريخه وتأسيسه:..... ٦٢
أثره العلمي والدعوي قديما:..... ٦٥
مما قيل في المسجد الأموي:..... ٦٥
الفصل العاشر: الواقع المعاصر للمسجد الأموي بين السنة والبدعة ٦٧
الفصل الحادي عشر: شرح الرحلة الدعوية إلى مدينة دمشق..... ٨١
المبحث الأول: شوق الكاتب إلى الشام قبل الرحلة..... ٨١
المبحث الثاني: الدعاء لأهل الشام زمن المحنة ٨١
المبحث الثالث: حال الكاتب زمن اندلاع الحرب على الطاغية ٨٢
المبحث الرابع: الرؤيا والبشارة في تلك الفترة وتعبيرها بدخول الشام. ٨٣
المبحث الخامس: العزم على الدخول إلى سوريا وأجواء البقاء في جدة وفي المطار..... ٨٤

المبحث السادس: أجواء المطار في دمشق والاستقبال الأول..... ٨٦

المبحث السابع: ذكر اللافتات والمدن-حماة، تدمر، درعا- أثناء السير إلى دمشق..... ٨٨

المبحث الثامن: وصف تصويري للأرض والأجواء..... ٨٩

المبحث التاسع: الناس على جانبي الطريق..... ٩٠

المبحث العاشر: الانطلاق إلى المساجد والدروس الأولى..... ٩١

المبحث الحادي عشر: رقة الناس وتأثرهم بدعوة التوحيد والنصح ... ٩٢

المبحث الثاني عشر: قصة الشاب الذي كاد أن يكون نصرانيًا..... ٩٤

المبحث الثالث عشر: رحلتي الدعوية إلى منطقة القطيفة المجاورة لدمشق ٩٧

موقف في عزاء عامٍ بالقطيفة..... ٩٩

المبحث الرابع عشر: إشراقة الدعوة في منطقة الدحاديل: ١٠٠

المبحث الخامس عشر: الدعوية في سجون دمشق، وأبرز المشاهدات: ١٠٢

موقفٌ طريف في السجن: انكشاف حال الصوفي ١٠٦

المبحث السادس عشر: مواقف مع الدخان والمدخنين واستجابتهم: .١٠٩

المبحث السابع عشر: مواقفي مع الصوفية في دمشق ١١١

المبحث الثامن عشر: منع كتب السلفيين في زمن النصيرية ١١٤

المبحث التاسع عشر: موقف العوام واستنكارهم على الصوفية ١١٥

المبحث العشرين: الحصول على الترخيص الرسمي وأثره.....١١٦

المبحث الحادي والعشرين: ثناء الناس والدعاة على الدولة الجديدة ..١١٦

المبحث الثاني والعشرين : مشاهد الحرب والصمود أيام حرب السويداء ١١٨

بشائر النصر على الدروز في السويداء ١٢٠

المبحث الثالث والعشرين : كلمة شكر لدولة الرئيس القائد أحمد الشرع حفظه الله.....١٢١

المبحث الرابع والعشرين: كرم أهل الشام وسماحتهم في البيع والشراء١٢١

المبحث الخامس والعشرين: نظام الأسرة وعادات الطلاق.....١٢٢

المبحث السادس والعشرين: واقع المرأة بين الالتزام والتبرج.....١٢٤

المبحث السابع والعشرين: عناية كبار السن بتلاوة القرآن.....١٢٦

المبحث الثامن والعشرين: مكانة كبار السن والاحترام الأسري.....١٢٧

المبحث التاسع والعشرين: البدع الشائعة في الأعياد والصلوات ١٢٧

المبحث الثلاثين: أواخر أيام رحلتي الدعوية في دمشق.....١٢٩

ذكرى الإمام الألباني رحمه الله في الزبداني؟.....١٣١

مفهوم التوفيق وقصة الشاب في الزبداني.....١٣١

المبحث الحادي والثلاثين: هل تأثر أهل سوريا بالنصيرية؟ ١٣٣

المبحث الثاني والثلاثين: عبرةٌ من الواقع الاقتصادي ونصيحةٌ للشعب السوري.....١٣٤

المبحث الثالث والثلاثين: ثمار الرحلة وأثرها على الداعية والناس....١٣٥

أولًا: أثرها على نفسي: ١٣٥

ثانيًا: أثرها على الناس.....١٣٦

ثالثًا: أثرها على المساجد:.....١٣٦

رابعًا: أثرها على العلاقة مع الدولة: ١٣٦

خامسًا: عبر ودروس مستفادة:.....١٣٧

المبحث الرابع والثلاثين: وصية ونصيحة إلى ولاة الأمر في الشام.....١٣٧

المبحث الخامس والثلاين: وصية أخيرة إلى أهل الشام عامة وأهل دمشق خاصة بالعناية بالعلم والدعوة.....١٣٩

الخاتمة.....١٤٣

الفهرس: ١٤٥

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي - جوار مسجد أنور - الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧ ٠٥٣٤١٥٩٨
حضرموت سيئون شحوح - مقابل مسجد ابراهيم - ومدرسة شحوح للبنين
+٩٦٧٧٨٣٢٤٦٥١٣
alshafibooks@gmail.com